

جميل سلطان

ركنور في الآداب

وعضو المجمع اللغوي للدراسات السامية في باريس

الموشح

إرث الأندلس الثمين

دراسة وشواهد

جميل سلطان

ركنور في الآداب

وعضو الجمع اللغوي للدراسات السامية في باريس

الموشح

إرث الاندلس الثمين

دراسة وشواهد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عهدى بالموشح - وأدب الاندلس - قديم ، ولعله أقدم مما
يتخيل ، فلقد كان ذلك من عهد الصبا المبكر ، يوم كانت العين تفتح
على حنان الآوة ، فترى المثل الطيب الصالح ، والنغم العذب الطروب ؛
وتشهد الاكبار للفن الدقيق ، والاعتصام بالترفع العيوف ، وتقرأ النظم
الرائق الجديد ، في اطار من روائع الوحي القديم .
ثم كان من أمر التوجه الى الادب ، ان تألق نور الاندلس كأبهـر
ما يسحر ، فشغل أديها من الزمن ما شغل ، واستنفد موشحها من
الجهـد ما استنفد ، حتى اذا وليت ادارة الاذاعة عام ١٩٥١ ، كان الموشح
مما أيد ونشط ، ولله بعد ، اوفر عندنا من كل اذاعة .
فان كان لتابع الموشح في الأدب والفن من عمر ، فهذه ثمرة عبقة ، ارفعها
الى من يعجزني الوفاء بحقه ، توجيهاً وتعليماً ، وارشاداً وتقويماً ؛ الى من
عرف رجال الفن من اطلاعه فوق مما عرفت ، وانفعوا بثروته الفنية
اكثر مما انتفعت :

الى والدي

محمد سليم سلطان

ارفع حصاد من عمل باخلاص ، ودعائي برّ ، واستشرف الى خير .

ج

دمشق ١٩٧٢/٧/١٩ و ١٩٥٣/٤/٣

مواد الكتاب

- ٥ - فن التوشيح : طلائع التجديد في الشعر العربي . الموشح وحدوده الفنية ، الاقوال والآيات ١٣ . النام والأفرع ١٩ . الخرجة ٢٣ . استعارة الخرجة والآيات ٢٦ . الأسماط والأغصان والتوشح ٣٠ . أصل الموشح وتطوره ٣٤ .
- ٣٧ - أوزان الموشح : الأوزان العروضية . الموشح الشعري ٣٨ . الأوزان الإيقاعية والجديدة ٣٩ .
- ٤٢ - خصائص الموشح الفنية : اغراض الموشح ، أسلوبه الفني مبني ومفني .
- ٤٥ - تألق الموشح : نشأة الزجل . الشرق يأخذ عن الغرب ٤٧ . هل اضرم الموشح ٤٨ . تعلق الناس به ٥٠ .
- ٥٢ - السابقون الى التوشيح : محمد بن حمود ٥٣ ، مقدم بن معاني ، ابن عبد ربه ، ابن القزاز ٥٤ . الرمادي ، ابن ماء السماء ٥٥ . ابن سناء الملك ودار الطراز ٥٦ .
- ٦١ - عباقرة التوشيح : ابن عبد ربه ٦٣ . الرمادي ٦٥ . ابن ماء السماء ٦٦ . ابن القزاز ٦٧ . الحصري ٦٨ . ابن بتي ٧٠ . الأعمى النبطي ٧٢ . ابن باجة ٧٤ . ابن زهر ٧٥ . ابن سناء الملك ٧٧ . ابن سهل ٧٨ . لسان الدين بن الخطيب ٧٩ . ابن زمرك ٨١ .
- ٨٣ - حول الموشحات : آراء علماء الشرق والمستشرقين : كرد علي فيلاسبا ٨٤ . شوقي ضيف ٨٧ . وآراء الهنداوي والحضي وابن بسام وديمونين واشباخ ٨٧-٩٠ . ٩١ - الخاتمة

فن التوشيح

طه نوح النجدي

انطلقت عبقرية العرب الشاعرة في الأجواء الاندلسية انطلاقاً
لم تكن لتعرفه من قبل في رحاب الشرق ، حينما كان يشغلها ما هي
فيه من قيود الوزن ، والقافية ، ووحدة البيت ، وانسجام الفكر ،
وتوازن المعاني ، ودقة الأداء في الكلام ؛

وتهيأ لملك العبقرية في الأندلس من آفاق الغنى المستفيض
والنعمة الهائلة ، واللذة الوافرة ، والطرب المثير ، ما لم يكده
يعرفه المشرق على ذلك المقياس من الغزارة والاتساع .

فكان جديراً بتلك العبقرية أن تسجل صورة ذلك الزمن
الرافع ، وتلك البيئة الطروب ، وأن تستجيب للتطور الذي أليفه
الأدب العربي على الأيام .

وهكذا حاصت العبقرية الشاعرة في أجواء سمحة ، وطلعت
على الناس بادب موشع ، حطم كثيراً من القيود في الشعر .

ولكن هذا التجديد لم يكن بدءاً في الفن، ولا مرتجلاً في
الاسلوب، فقد ظهر في شعراء العربية المشاركة أيام بني العباس
من كان ينزع إلى التجديد في الاسلوب، وبحث عن الحرية في
النظم، رغم ما عرف به المشرق من أناة في التطور الأدبي،
وحفاظ على الطريقة الموروثة في القصيد، فكان أولئك النازعون
إلى التجديد طلائع الانطلاق؛ ولو تهيأ لهم ما تهيأ للاندلسيين
من بُعدٍ عن تيار المحافظة، وانغماسٍ في اللهو والهوى، وازدهار
في الغناء والطرب، مع الطبيعة الساحرة، والثروة الوفيرة، لو تهيأ
كل ذلك لأوصلتهم الخطأ إلى الموشح أو إلى شيء يشبهه .
وإذا عدت إلى تطور الأدب العربي وما رافقه من مظاهر فنية،
القيت في طبيعة الأدب نزوعاً إلى التجدد في الاسلوب والاعراض
فن تلك المظاهر الفنية المتجددة ثورة طائفة من الشعراء
على المطالع الموروثة، من وقوف على الاطلال وبكاء للاحبة،
ونزوعهم إلى معالجة الموضوع رأساً، أو التهيد له بما يناسبه من حكمة
أو وصف أو غيره، مما عد خطوة في تجديد المطالع، كقول أبي نواس

لاتبكِ هنداً ولا تطربِ الى دعدِ واشربِ على الوردِ من حمرأة كالوردِ

وقوله : (المقد ٤/٣)

طاجِ الشقيُّ على رسمِ يسائه وعُجبتُ أسألُ عن خمارِ البلدِ
يبكي على طللِ الماضينِ من اسدِ لا در در كُقلِ لي مَنْ بنو أسدِ؟
وَمَنْ تميمٌ ومن قيسٍ ولقُهما ليس الا عارِيبٌ عند الله من احدِ
لاجفُ دمعِ الذي يبكي على حجرِ ولا صفا قلبِ من يصبو الى وتدِ

وقول ابي تمام :

السيفُ اصدقُ ابناءً من الكنبِ في حده الحد بين الجد واللعبِ

وكان من مظاهر التجديد في الاسلوب تلك العناية الفائقة بأنواع المحسنات البديعية المختلفة ، لفظية ومعنوية ، وكثرة الاعتماد على الصور والاستعارات والكنيات والتجسيم والتشخيص في اداء الافكار ، مما أشرنا اليه في كتابنا عن ابي تمام ،

وكان من مظاهر التجديد في الأغراض والاوزان ما نظم من الأقساميص والأمثال والحكم في مقطوعات او مزدوجات : كل شطرين منها على قافية واحدة ؛ فقد ورد ان ابان بن عبد الحميد اللاهتي نظم كتاب كليلة ودمنة شعراً ، ونظم ابو العتاهية قصيدته ذات الامثال في اربعة آلاف مثل ، كما ذكر صاحب الاغانى ، وفيها يقول :

حسبك مما تبغيه القوتُ ما أكثر القوتَ لمن يموت
هي المقادير للمني أو فذرُ ان كنتُ أخطأتُ فما اخطا القدر
ان الشباب والفراغ والجدمةُ مفسدة للمرء ايُّ مفسده
إن الشباب حجة النصابي روائح الجنة في الشباب

وخلد اديب الانداس الكبير ابن عبد ربه غزوات الخليفة
عبد الرحمن الناصر ، وما أفاض على البلاد من أمن بعد حرب ،
في منظومة مزدوجة حاكي فيها طريقة ابي العتاهية في ذات
الأمثال ، فوصف الحياة الاجتماعية والحربية وما كان من أخلاق
الناصر الكريمة ، وهمته الرفيعة ، وسخائه الغمر ، وحروبه
المتواصلة ، واستيلائه على المدن ، وتدرج في ذكر كل ذلك بحسب
السنوات التي ولي فيها مقاليد الحكم في الاندلس ؛ وهي مزدوجة
طويلة تقع في اكثر من اربعمائة بيت فكان مما قال فيها :

(المقدم ٣ / ٢٠٩ - ٢٢٧)

مؤيد حَكَمَ في عداته سيفاً يسيل الموت من ظبائه
قد اشرفت بنوره البلاد وانقطع التشبيب والفساد
هذا على حين طنى النفاق واستفحل النكاب والمراق
وضاقت الارض على سكانها واذكت الحرب لظى نيرانها

تأخذنا الصبيحة كل يوم
حق انا الفوث من ضياء
هو الذي جمع شمل الامة
فجمع الاجناد والحشودا
حق تداعى القوم يوم السبت
فاشرعت بينهم الرماح
وفارقت أغمادها السيوف
وختمها بقوله :

ثم نثى الامام عن عنائه
وامن القفار من ايجاسها
وقد شفى الشجي من اشجانه
وطهر البلاد من ارجاسها

وكان من منازع الشعراء الى التجديد تلك المسمطات التي
تضمن أحياناً ثلاثة اشطر على قافية واحدة ويكون الشطر الرابع
هو المتبع في السميط الى منتهاه ، مثل قول بعض المحدثين .

وشية كالقَسَم
داويتها بالكم
غير سود اللِسم
زوراً وبهتاناً

وقالوا في تعريف المسمط من الشعر : إنه آيات مشطورية
تجمعها قافية واحدة ؛ وقيل هو ما قُفِيَ ارباع بيوته وسميط في
قافية مخالفة ، كما رأيت في المثال المتقدم ؛ وقال الليث : الشعر المسمط :

الذي يكون في صدر البيت ايات مشطورة او منهوكة مقفاة
ويجمعها قافية مخالفة لازمة للقصيدة حتى تنقضي ، قال : وقال
امرؤ القيس في قصيدتين سمطيتين على هذا المثال ، يسميان
السمطين ، و صدر كل قصيدة مصرعان في بيت ، ثم سائر ذو سموط
فقال في احدهما :

ومستلم كشتت بالريح ذيلَه اقت بمضبِ ذي سفاق مبدَه
فجعتُ به في ملتق الخيل خيلَه تركت عناق الطير تحجل حواه
كأن على سر باله نضع جريال

واورد ان برّي مسمّط امرئ القيس :

توهت من هند معالم الطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
* * *
مرايع من هندخلت ومصايفُ يصبح بغناها صدى وعوازفُ
وغيرها هوج الرياح العواصفُ وكل مسفر ثم آخر رادفُ
بأسحج من نوء السماكين هطال

واورد ان برّي لا آخر :

خيال حاج لي شجنا فبتُ مكابداً حزننا
عميد القلب مرتهناً بذكر اللهو والطرب

سبني ظبيةً عَطُلُ كَانَ رِضَاهَا عَسَلُ
 يَنُوءُ بِمُخَصَّرِهَا كَفَلُ بَنِيْلُ رِوَادِفِ الْحَقَبِ
 * * * * * *
 يَجُولُ وَشَاحَهَا قَلَقًا إِذَا مَا أَلْبَسْتَ شَفَقًا
 رِقَاقِ الْعَصَبِ أَوْ سَرَقَا مِنْ الْمَوْشِيَّةِ الْقَشْبِ
 * * * * * *
 يُمِجُ الْمَسْكَ مَفْرَقُهَا وَيَصِي الْعَقْلَ مَنْطِقُهَا
 وَنَمِي مَا يُورِقُهَا سَقَامُ الْعَاشِقِ الْوَصْبِ (١)

وليس الدوبيت (البيتان) غير مظهر آخر من مظاهر

الانطلاق وذلك مثل قول ابن الفارض :

أهوى قرأ له المعاني رقء من صبح جبينه اضاء الشرق
 تدري بالله ما يقول البرق ما بين ناياه ويبني فرق

وقول الآخر :

ان جئت ربا الحمى ولاحت نجد فاذا كره ولهي وما جناه البعد
 قد كنت اقا سي البعد حتى رحلوا يا ليتهم طادوا وطاد الصد

فهذه وغيرها مما بسطنا عنه الكلام في « فنون الشعر »
 محاولات للافلات من القيود القديمة ؛ واذا كان بعض
 الفحول من الشعراء لا يرون في هذه المظاهر دليلاً على قوة

(١) انظر اسان العرب ٩ / ١٩٦ ، وكتابنا عن فنون الشعر

الشاعرية ، والتمكن من القريض ، فقد كان فريق آخر يرى ان التطور الفني يقتضي تجنب الشعر بعض قيوده القديمة التي يزرع تحت أثقائها ، وأنه لا بد من تطور فيه الدليل على الحياة ، لأن كل شيء لا يتطور فأنما مرده إلى الهلاك ؛ وها هي ذي الحياة العباسية نفسها قد أخذت بالتطور والانطلاق في كثير من المفاهيم الاخلاقية والاجتماعية والمعاشية ، وإذا كان الشعر ، وهو صنو النثر ، وأحد فرعي الأدب ، اذا كان مرآة تعكس مشاهد الحضارة الجديدة ، فما أجدره بأن يسارق الزمن ، ويساير الركب ، فيتأثر بتألق الحياة الجديدة ومنازعتها في الحرية والمذاهب المختلفة .

ولكن الحياة في الشرق العربي تصطدم دائماً بالأبواب الموروث ، الذي ينظر إليه أبناؤه كأنه عنصر من عناصر البقاء والخلود ، أضف إلى ذلك ان البادية الرابضة على أبواب الحضارة الجديدة هي مهد العربية ، ومعقلها الحصين ، يرتادها الفصحاء ، ويحج إليها العلماء ، وتهب منها نفحات البداوة العربية الخالصة ، فتثير في

قلوب المشاركة رميس الحنين اليها ، وتؤثر فيهم نار الحفاظ على لغتها وطريقتها ، ولذلك كان من العمر والشدة أن يشق الشعر طريقه المتجددة في مثل هذه الرحاب ، ولكنه حينما غرّب وحط رحاله في الاندلس بعيداً عن تلك النوازع المحافظة ، قريباً من المؤثرات الاعجمية المختلفة ، كالعادات واللغة ، أخذ يرقل في مطارف التتميق والتهذيب ، ويحاق في آفاق جديدة ملهمة ، فكان ما رآه في الدنيا الجديدة مدعاة الى التحلل من كثير من القيود ، وإذا به يخرج على الناس في حلة جديدة من خالص نسج الاندلس هي حلة التوشيح التي لم يعرفها المشرق قبل المغرب ، وقد اعان على تكوينها نهضة جبارة في الغناء والالخان ، تهيأت للاندلس بفضل طبيعتها الجميلة ، وترفها المفرق ، ورحيل كبار المغنين والمغنيات اليها امثال زرياب والجواري فضل وعلم وقلم وقمر والمجفاء ؛

الموسم ومروره الفنية .

فنظم المغنون والشعراء الاندلسيون والمغاربة تلك الموسحات وجعلوها « اسماطاً اسماطاً ، واغصاناً اغصاناً ، كما يقول ابن خلدون ،

واكثرها منها ومن اعاريضها المختلفة ، وسموا المتعدد منها بيتاً واحداً ، والتزموا عند قوافي تلك الاغصان واوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة ابيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان ، عددها بحسب الاغراض والمذاهب» (القدمة ص ٤١٠) وسموا هذا النوع الجديد باسم الموشح نحو :

جزء

(قفل) : أَدِرْ لَنَا كَوَابِ . يُنْسَى بِهَا الْوَجْدُ . وَاسْتَحْضِرِ الْجِلَاسَ . كَمَا اقْتَضَى الْوَدُ

* * *

جزء

دِينٍ بِالصَّبَا شَرَعَا	مَا عَشْتَا يَا صَاحِرَ
وَنَزَمَهُ السَّمَا	عَنْ مَنطِقِ اللَّاحِ
فَالْحَكْمَ أَنْ تَسْمَى	عَلَيْكَ بِالرَّاحِ

بيت :

* * *

(قفل) : اِنَامِلُ الْعَنَابِ . وَنُقْمُكَ الْوَرْدِ . حَفَّ بِصَدْعِي آسٌ . يَلُوبِهَا الْحَدُّ

* * *

لِلَّهِ	أَيَّامُ	دَارَتْ بِهَا الْحُمْرُ
وَالرُّوْحُ	بِسَامِ	بَاكِرِهِ الْمَطَرُ
وَصَلَّ	وَالْمَاءُ	وَأَوْجُهُ زُهْرُ

يب :

فنعن بالاصحاب . قد ضمنا عقد . ويا ابا العباس . لا خانك الجد

خليفة منكا
نا ب لنا عنكا
لا تقى ضنكا
فينا ابو بكر
في النهي والامر
من نوب الدهر

وانتم ارباب . ما شيد المجد . وان بلونا الناس . فهم لكم ضد

حليت (لنا) الدنيا
وجاءنا بحبي
اغر بالعليا
من بعد تعطيل
بين البهايل
من فوق تحجيل

يختال في اثواب طرزها الحمد . وافرط الايناس فما له حد

بيننا انا شارب
وبين آنا تايب
اذ قال لي صاحب
للقهوة الصرف
لكن على حرف (١)
من حلبة الظرف

نديمنا قد تاب . غن له واشد . واعرض عليه الكاس . عساء يرتد

(دار الطراز ٤٧-٤٨)

(١) أي توبة غير ثابتة ولا متينة واقرب الى الارتداد ، واحسب

في الكلام اشارة الى آية من القرآن الكريم : « ومن الناس من يعبد

الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب

على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . (الحج ١١)

فالشطر الأربعة الأولى التي بدأ بها الموشح تسمى (قفلاً) وقد تألف الفحل هنا كما ترى من أربعة (أجزاء) انتهى كل (جزء) بروي خاص (أكواب . الوجد . الجلاس . الود) واذن فالموشح هنا مبدوء بقفل مؤلف من أربعة أجزاء ، وإذا عدت تنظر في الموشح رأيت بعيداً عنه قفلاً آخر وهو (انامل العناب . ونقلك الورد . حف بصدغي آس . يلويها الحد) وقد التزم في هذا القفل ما التزم في القفل الأول من الروي ، ومن عدد الأجزاء ، ومن الوزن .

وهكذا تجد القفل الثالث :

(فحن بالاصحاب . قد ضمنا عقد . ويا ابا العباس . لا خانك الجد) فقد التزم فيه ما التزم في الأول من الروي ، وعدد الأجزاء ، والوزن ؛ واذن فالقفل يبقئ المثال الذي يجب أن يعتمد عليه في الموشح بالمحافظة على عدد أجزاء ورويه ووزنه .

وإذا نظرت بين القفل الأول والقفل الثاني وجدت ستة اشطر يسمى مجموعها (بيتاً) ولكنه في الواقع ، وبالنسبة لما تعرفه من علم العروض ، مؤلف من عدة أبيات وإنما

المصطلح عليه في الموشحات ، ان نسمي ما بين القفلين (بيناً)
ولو كان مؤلفاً من عدة اشطر .

فاذا نظرت في البيت وجدته مؤلفاً من ثلاثة اجزاء :

الجزء الاول منه هو : دن بالصبا شرعا ما عشت يا صاح

والجزء الثاني منه هو : وتزه السما عن منطلق اللاحى

والجزء الثالث منه هو : فالحكيم ان تسمى عليك بالراح

فاذا اخذت الجزء الاول منه وجدت له نوعين من الروي :

في الفقرة الاولى (شرعا) وفي الفقرة الثانية (صاح) وقد

التزمها الوشاح ، فهذه اذن اصول البيت : وهي ان يتألف من

اجزاء وفقرات ويكون عدد مايجيء به الوشاح ووزنه ملتزماً في

بقية الابيات ، اما الروي فلولوشاح الخيار والحرية في التزامه

وعدمه ، والافضل ان يكون الروي مختلفاً في الابيات ، وها هو ذا

الوشاح يقول في البيت الثاني (بين القفلين الثاني والثالث)

لله	ايام	دارت بها الحمر
والروض	بسام	باكره القطر
وصلت	والمام	واوجه زهر

فانت ترى انه لم يلتزم الروي الذي التزمه في البيت الاول
ولكنه التزم الوزن وعدد الاجزاء .

ونستنتج بمقتضى ان روي أعاريض الاقفال وضروبها وعدد
اجزائها واوزانها واجبة الالتزام في الموشح ، وهي الاصل الملتزم
والاساس الذي يحتفظ به ، بينما لا يلتزم في الايات غير عدد الاجزاء
(بما فيها الفقرات) والاوزان ، واذا ذكرت ان القفل في الموشح
المتقدم مؤلف من اربعة اجزاء ، فاذا ذكر الى جانب ذلك ان
القفل في صنعة الموشحات لا يكون اقل من جزأين كقول بعضهم:

شمس قارنت بدرأ راح ونديم

والموشاح ان يبني قفله على اجزاء متعددة قد تبلغ الثمانية ، وربما
بلغت الاجزاء التسعة او العشرة ، ولكن ذلك قليل نادر ، وعلى كل
حال فاذا كان القفل الاول مؤلفاً من عددٍ من الاجزاء معين
وجب ان تكون اقفال الموشح كلها مؤلفة من العدد نفسه ،
ويندر في بعض الموشحات الشاذة التي لا يعول عليها ان تكون
أقفالها مختلفة اعداد الاجزاء ، كأن يأتي القفل الاول مؤلفاً من
جزأين وبقية الاقفال من ثلاثة .

وجرت العادة ان يبدأ الموشح بقفل ثم ينتهي بقفل وأن
يتردد القفل في الموشح ست مرات وعندئذ يسمى الموشح
(تاماً) فاذا لم يبدأ الموشح بالقفل وإنما ابتدأ بالبيت سمي
الموشح (افرع) وعلى هذا فالقفل اذن يتردد خمس مرات في
الموشح الافرع وست مرات في الموشح التام .

فلننظر في موشح أفرع (لابن سناء الملك ٩٦) مبدوء

بالبيت ، ولنكتف بقسم منه :

دانت لي الدنيا	وواصل الوصلا
من هو لي محبا	وصار لي خلا
لا أسمم النهيا	فيه ولا العذلا
ما اعطر اللقيا	له وما احلى

تملك الحلس . من النفس . او اللبس . لقد كمل . بدر طرق
مثل الفلق . تحت الغسق . حتى سرق . الباب . اهل الصواب

ما صال حق صاد	بطرفه الوسنان
وصير الآساد	فرايس الغزلان
واخلف الميعاد	واخجل السلوان
جبينه الوقاد	إن شيت والفتان

فيه قبس تحت الغلس . وقد حرس . ورد الحجل . نبل رشق
حتى ابق . قلبى فرق . فلهحدق . نشاب . بها نصاب

هذا الموشح كما ترى (اقترع) لانه مبدوء بالبيت لا بالقفل ،
وكل قفل فيه مؤلف من عشرة اجزاء ملتزمة الروي والوزن
مع التزام العدد .

اما ابياته فرددت في أصل الموشح خمس مرات ، وكل بيت
منها مؤلف من اربعة اجزاء ، وكل جزء مؤلف من شطرين
او فقرتين .

والفقرة في الاصل اما أن تتألف من القافية او الروي في كلمة
واحدة واما ان تنضم اليها بعض الكلام القليل المنظوم قبلها ، فمن
ذلك قول ابن سناء الملك (١٠٥) في البيت المؤلف من ثلاث
فقر وثلاثة اجزاء (والبيتان بين ثلاثة أقفال) :

(قفل) صلبي . ياجنة الخلد . يا فتنة الناس . يادعوة المظلوم
حسبك . قد اشتفيت مني . ولا اقول حسبي
قربك . يا غاية النعمي . ومنية المحب
قلبك . ضن ولم يعدني . ولا رنى لقلبي
عدني . قعدت بالوعد . لان وسواسي . يقول بالمعدوم
عقلي . سببته بناظر . يحبي كما يميت
شلي . شننه بعاطر . من ثمرك الشنيت
قل لي . ان كنت غير ذا كر . عهدي وقد نسيت

إني . باقٍ على العهد . لكنني ناصِر . لسرنا المكتوم
وأعلم بدء هذا ان البيت يؤلف على الأغلب من ثلاثة
اجزاء ، ويمكن أن يؤلف من جزأين ، ويندر أن يكون من
ثلاثة أجزاء ونصف ؛ وقد رأيت ان الأجزاء التي تؤلف البيت
تتألف من فقرات ، فقد يكون جزء البيت مركباً من فقرتين
او ثلاث او اربع فقرات ، وقد يكون الجزء مفرداً غير مؤلف
من الفقرات .

وهاك موشحاً أقرع ، بدأه الوشاح ببيت مؤلف من ثلاثة
أجزاء وكل جزء فيه اربع فقرات ، ومن النظر في الفقرات
الآتية يتبين لك ان الفقرة تكون القافية وحدها حيناً ، وتضم
اليها بعض الكلام المنظوم المرزون حيناً آخر ؛ يقول الوشاح :

(هو عبادة الغزاز كما ذكر ابن خلدون في المقدمة ٥٤٢ ، ويصحح ابن بسام
النسبة الى محمد بن عبادة المعروف بابن الغزاز كما في الذخيرة ٢٩٩/٢ ولا يفسبه
ان سناء الملك لاحد . شأنه في الموشحات التي نقلها عن غيره في كتابه دار الطراز
ص ٦٥) .

بالي . ظبي حمي . تكلفه . اسدُ غيل (جزء فيه ٤ فقرات)
مذهبي . رشفُ لمي . قرقة . سلسبيل
يستبي . قلبي بما يعطنه . اذ يعيل

ذو اعتدال . يعزى الى . ذي نعمة ثابت } قفل
في ظلال . تحت حلى . فطر الندى بائت

ذو فتور . ذو غمغ . ذو مرشف . العسر .
العبير . في ارج . والحسن في . ملابس .
كم يشير . وجد شج . بالدف . مكس .
ذو اعتدال . لو عللا . انطق عن ساكت .
وغزال . لو مقلا . ألحظ عن باهت .

واعلم بعد هذا أن البيت اذا كان يتألف من فقرات ، فان
القفل لا يتركب منها أبداً ، وانما يتركب من اجزاء ، والجزء
من القفل لا يكون إلا مفرداً ، بمعنى انه وحدة مستقلة ؛
واذن فالوقفان نقيض تألف الاجزاء فقط ، واما الابيات
فنقيض تألف الاجزاء المؤلفة من فقرات متعددة او مفردة غير
مركبة ، والالتزام يقع في الوقفان على الوزن والقوافي وهرد
الاجزاء ، ويقع في الابيات على الوزن وهرد الاجزاء ، ويحسن
التنويح في القوافي .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان بعض الوشاحين الماهرين
كاوا يخالفون القاعدة الاصلية حيناً في وجوب التزام الوزن

الواحد ، في الاقفال والبيوت ، ولا يقدم على هذا إلا البارع
في صناعة الموشحات ، العارف بايقاع الألحان ، فمن ذلك
قول ابن مناة الملك :

غزال قر من جنات عدن	وابدى بدر تمّ فوق غصن
وولتي آخذاً للمقل مني	فقل للبدر بدر الأفق عني
ان بدري غائب	فكن لطرفي نائب
شقيت به وقيل لي السعيد	واغواني ووالدي الرشيد
امير من معاليه الجنود	وقاض من شبائله الشهود
وكريم كاتب	لقد علا اهل المراتب

على ان هذا الخروج عن التزام وحدة لوزن في الاقفال
والأبيات قليل نادر .

وبعد فاذا نظرت إلى أي موشح كامل وجدته ينتهي
(بقفل) ، وهذا القفل الأخير من الموشح يسمى (فرجه) .
ويشترط الأولون ان تكون هذه الخرجة حلوة عذبة ،
تخلب الألباب وتمز النفوس ، ينتقل اليها الشاعر عن طريق
(قال) او (قلت) او (غني) او (غنيت) على لسان
الطير او الحب او السكران او غير ذلك .

فمن ذلك قول عبادة القزاز على لسان الحمام في موشح مدح فيه المعتصم
والمعتضد الاندلسيين وانتبى فيه إلى قوله :

حازا حكم . اعيت شد . لفنان
الى همم . جازت امد . كيون
كل الأنام . بذلك يعتد
ففي الكرام . كلاها فرد
ان الحمام . في ايديها تشدو

قل هل علم . او هل عهد . او كان
كالمعتصم . والمعتضد . ما كان

ولهم في الخرجات رأي غريب ، وها هو ذا ابن سناء الملك
يقول : « والشرط فيها (أي الخرجة) أن تكون حجاجية من
قبل السخف ، قُزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة ، حادة
منضجة ، من الفاظ العامة ولغات الدائنة^(١) فان كانت معربة
الألفاظ منسوجة على منوال ما تقدمها من الأبيات والأقوال
خرج الموشح من أن يكون موشحاً اللهم الا ان كان موشح
مدح وذكر المدوح في الخرجة فانه يحسن ان تكون الخرجة
معربة . . . » (ص ٣١)

(١) الدائنة : جم الدائس وهو اللص . اشتهر ابن الحجاج في المشرق
بالتوادر والهزل ، وابن قزمان باللحن والزحل في المغرب .

وإذن فإن كان الغرض من المرشح مديحاً أو كلام جسد ،
فلا بد من مراعاة القواعد النحوية والصرفية في الخرجة ، وان
كان الغرض لهواً أو مجوناً أو تندرأ فلا بد من أن يجول الشاعر
بجمال المجان من الشعراء الذين لا يبالون أن يتعرضوا إلى
الدعارة والفسوق في أفوالهم وأن يخرجوا على القواعد النحوية
المألوفة أو الكلمات الصحيحة ، ومن أجل هذا كثرت ألفاظ
العامة وسخفهم وطريقتهم غير المعربة في كثير من الموشحات
وفي الخرجات خاصة ، وإذا كان ابن سناء الملك قد ذهب
إلى أن تلك الطريقة أصل في الموشح وأنه لا بد من سلوك
ذلك المسلك من اللحن والتحليل من القيود فان الأبيشيبي
(٧٩٠ - ٨٥٢ هـ) قد أنكر اللحن على الوشاحين ورأى ان
الموشح والمروض والدوبيت يجب أن تكون معربة أبداً ولا

يغتفر فيها اللحن (المنتظر ٢/ ٢٧٧)

فما ورد من المراجعات العامة قول ابن بني : (٣٢ و ٧١ دار)

انا	وانتا	اسوة هذا الهجر
بالصبر	بانتا	مع انصراع الفجر

ومذ رحلنا غنى الجوى في صدري
سافر حبيبي سحرّ وما ودعتو
يا وحش قاي في الليل إذا انكرتو

وكان المتقدمون ينصحون بأن ينظم الشاعر الخرجة قبل نظم الموشح ، لتكون الخاتمة مهياة بما فيها من طرافة أو سخر أو مجون أو تصريح بما لا يرضى من القول ، فاذا لم يتها له شيء من المعاني الصريحة أو المجون الظاهر في خرجة مناسبة فلا بأس بأن يستعير من شعر غيره ما يعجب أو يطرب ، فيتخذه خرجة لموشحه من قبيل الاستعارة والتضمين ، وهذه الطريقة عندهم أصوب وأفضل ممن يجدّ وبعرب ، فلا يخف ولا يطرب ، وإذا لم يجد ما يناسبه في العربية المألوفة ، فلا لوم عليه ان يستعير ذلك من الأعجمية أو العامية ، كل ذلك جرياً وراء المعنى السوقي ، واللفظ الصريح ، والفكرة الغريبة ، أو الأدب المكشوف ، ومراعاة الذوق الذي فسد بحكم اللحن فيه ونبوته عن الفصحي ، وقد دلنا ادب الأندلس الكبير ابن شهيد الذي عاش في القرن الخامس على مبلغ ما وصل إليه انتشار

الاحن حين قال عن عصره إنه « ليس لسيدويه فيه عمل
ولا للفراهيدي إليه طريق » (رسالة التوايح والزواجر في الذخيرة ٢٢٩/١)
فمن المخرجات الجيدة المستعارة ما تراه في آخر هذا الموشح
الذي يتركب قفله من جزأين وبيته من ثلاث فقرات .

شمس قارنت بدرا راح ونديم
أدراكوس الحمر عنبرية النسر ابن الروض ذوبشر
وقد درع النهر هبوب النسيم
وسلت على الأفق يدُ الغرب والشرق سيوفاً من البرق
وقد أضحك الزهرا بكاء الغيوم
ألا إن لي مولى تحكم فاستولى أما إنه لولا
دموع تفضح السر لكنت كتوم
أنى لي كمان ودممي طوفان شبت فيه نيران
فمن أبصر الجرا في لج يعوم
إذا لامني فيه من رأي تجنيه شدوت أغنيه
(لعل له عذرا وأنت تلوم)

فهذا الموشح يتضمن ستة أفعال ويبتدي بواحد منها وفيه
خمسة أبيات فهو موشح تام وفي آخر البيت الخامس سبيل
التوصل إلى المخرجة وهو قوله (شدوت أغنيه) وهذه المخرجة

التي انتهى بها مستعمارة من الشعر القديم يتمثل بها في أما كن
الاعتذار عن اللوم : لعل له عذراً وأنت تلوم :
ولابن الوكيل موشح أخذ له اعجاز قصيدة ابن زيدون
المشهورة وجعلها خرجات فقال :

يا صاحب النجوى قف واسمع مني
إياك أن تهوى إن الهوى يضي
لا تقرب البلى اسمع وقل عني
بحاره مرة خضنا على غرة
حِيناً فقام بنا للندى ناعينا

من هام بالغيد لاقى مرها
بذات مجهودي لأحور ألمي
مرها بالجود ورد ما همها
وعندما قد جاد بالوصل او قد كاد
أضحى التناهي بدلا من تدانينا

(نصح الطيب طبعة الرفاعي ٢٣٤/٥)

وكان ابن المعتز قال في قصيدة له :
علموني كيف أسلو وإلا فاحجبوا عن مقلقي الملاحا
فجاء ابن بقي وهو أحد الوشاحين المشهورين ، وجعل البيت
خرجة فقال في آخر موشحة له :

لست اشكو غير هجر موصل
مذ منعت القلب عن عدل عادل
وتغنيت لهم قول قائل

علموني كيف اسلو وإلا فاحجبوا عن مقلتي الملاحا

واستعارة الأبيات من الشعر الموشح لا يقف عند القفل
الآخر، فرمما عمد الموشح إلى أخذ بعض الألفاظ من الشعر
القديم ليجمعها في بيت من أبيات موشحه، وهذا ككهاجم
يقول :

يقولون تب والكأس في كف اغيد وصوتُ المثاني والمثالث عالي
فقلت لهم لو كنت اضمرت توبة وابصرت هذا كله لبدالي

فقال ابن بقي، وحلّ في موشحته هذين البيتين وجعل

الاستعارة ضمن الموشح :

قالوا ولم يقولوا صواباً

انيت في المجون الشبابا

فقلت لو نويت متابا

والكأس في يمن غزالي والصوت في المثالث عالي لبدالي

الاسماء والافعال والنوش

وإذا عدت بعد هذا تنظر في تركيب الموشح وترتيبه ،
وكيف يبدأ بالقفل ، ويعقبه البيت ، ثم يتداول النظم ما بين
أمر أساسية ملتزمة ، وفروع يلتزم فيها شيء ، ويطلق شيء
آخر ، إذا نظرت في ذلك تبينت السبب في تسمية بعضهم
القفل (باللازمة) لما يلتزم فيه من الروي والوزن والعدد في
جميع الأفعال ، وتسمية البيت (بالدور) لأنه يدور فيأتي غيره
مكانه مما هو غير ملتزم الروي في الصدر والعجز ، كما أنك تستبين
ما عنده ابن خلدون في مقدمته حين قال عن الموشح : « ينظمونه
اسماطاً اسماطاً ، وأغصاناً أغصاناً ، يكثرون منها ومن أطاريضها
المختلفة ، ويسمون المتمدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عند قوافي
تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة ، وأكثر
ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على أغصان عددها
بحسب الأغراض والمذاهب . ويظهر لك من كلام ابن خلدون
أن في الموشح أيضاً نوعين من التسمية هما الاسماط والأغصان ،

وبريد بها الأقوال والأبيات بدليل قوله « إنهم يكثرون منها (أي من الأغصان) ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً » ، وقد رأينا كيف تعدد الأشرط وتؤلف البيت ، ويظهر من قوله أيضاً أن الأغصان هي الأجزاء التي تؤلف البيت ، بدليل قوله « ويشتمل كل بيت على أغصان » .
فالأسماط إذن هي الأقوال ، والأغصان هي أجزاء الأبيات ،

وهو ما نرجحه ، وإن كان بعضهم يرى أن السمط هو القفل والبيت معاً ، وينفي هذا الرأي ما ينشأ عنه من نتيجة . ذلك أننا إذا سلمنا بأن السمط هو القفل والبيت الذي يليه معاً ، فأن يكون الغصن ؟ ومنشأ هذا التردد ، أن الذين تحدثوا عن الموشحات من القدامى ، لم يحددوا الأسماط والأغصان بأكثر مما حدده ابن خلدون ، حتى أن ابن سناء الملك وهو من أوسع من تحدثوا عن صنعة النوشبح لم يحدد الأسماط والأغصان .

ومن الغريب أن يذهب بعض المؤلفين الأجلاء إلى تسمية مقلوبة فيرى أن القفل الأول هو الغصن ، وأن البيت الذي

يليه هو السمط ، وان القفل الثاني هو القفل ، وان مجمرع هذين
الاثنين (السمط والقفل) هو البيت ، ولعل هذا راجع الي
عدم تبين عبارة ابن خلدون في بعض أماكنها الغامضة .
والناظر في أمثلة ابن سناء الملك العملية التطبيقية يرى وجه
الصواب الذي بسطناه ، ويجلو الغامض من عبارة سواه .
وأصل التسمية في الأسماط ترجع الي المعنى اللغوي في
السمط ، فهو القلادة او الخيط فيه لآلء واحجار كريمة
أو خرز ثمين ، وقد شبهوا به القفل إذ كان كالقلادة في الموشح
وشبهوا الأبيات بالأغصان ، إذ كانت متشعبة متفرعة ؛
وأما أصل تسمية هذا الضرب من الشعر باسم الموشح ، فلا شك
في أنه يعود إلى طريقة نظمه وترتيبه ، وتفنى الناظم في نظمه ،
ومخالفته بين الأفعال والأبيات ، جمالاً وطرافة ، فقد أوحى
هذه الأمور كلها ان تستعار كلمة التوشيح من اللغة ، إلى هذا
النوع من الشعر ، فأخذت الكلمة من توشيح الثوب إذا طرز

ووشي ، ووضعت له الحجارة الكريمة ، والوشاح : أديمٌ عريض
النسيج ، يرصع بالجواهر والآلي ، في نظمين متخالفين مطوف
أحدهما على الآخر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها ، والتوشح
بالثوب هو أن يدخل الرجل الثوب من تحت يده اليمنى فيلقيه
على منكبه الأيسر ، كما يفعل المحرم في الحج ، ثم يعقد طرفيهما
على صدره .

وعرف عن الموشحة من الظباء والشاء والطيور أنها ذوات
الطرفين من جانبيها ، والوشحاء من الموز السوداء الموشحة ببياض ،
والديك الموشح هو الذي له خطتان كالوشاح .

ولما ألف ابن سناء الملك كتابه (دار الطراز) في عمل الموشحات ،
لاحظ معنى النسيج الموشح في اسم الكتاب ، فان أصل دار الطراز :
المصنع الذي تصنع فيه الثياب الحريرية الموشاة التي كانت تعمل
للأمراء والسلاطين ، كما سيأتي الكلام على ذلك فيما بعد .

أصل الموشح وتناوره

ولك أن تتساءل بعدُ ، عن هذا المنزع في الحرية الشعرية وكيف خرج به أهلوه إلى الكلام المالحون واللفظ الأعجمي الرديء ، وما كان للشعر الذي أحب أن ينطلق من القيود القديمة ، أن يسف إلى هذا الموضع ، فيتبدل بالفصاحة عجمة ، وبالجد هزلاً ، وبالجودة رداءة وإسفافاً .

وإذا كان اللحن قد شاع في ربوع الأندلس أيام الموشحات فما هو فيما أحسب أكثر ذبواً مما ترى في عصرنا الحاضر ، ومع ذلك فالتناس اليوم لا يرتضون من الشعراء مثل ما كان يرتضي الأندلسيون .

وأحسب أن سر ذلك الإسفاف ، كثرة الاختلاط بالأعاجم من أهل جزيرة الأندلس ، فقد كثر التزاوج بين الجنسين : العربي والأسباني ، واستسلم الفاتح لعادات المغلوب ، وكثرت أنواع الملاهي التي أغرق فيها الشعب العربي ، والجبل الزبيج ، واتصلت الأفكار بين العرب وغيرهم ، وكان أدب الأسبان

في ذلك العهد لا تذبذباً يرعاه الخواص ، وكان للأسبان عامية نشأت عن الأصل اللاتيني ، كما نشأت لغات عامية ثانية في بلاد الأفرانسين والاطليان وغيرهم ، وكان للعامية الاسبانية شعراء يتفنون بأشعارهم التي ينقصها السكال في الأوزان والقوافي ؛ وهنا يرى فريق من الباحثين ان تلك الاغاني الشعبية الاسبانية التي كانت على مسمع ومرأى من العرب ، هي التي دعت الفاتحين الى أن يقلدوا في التحرر من القوافي والأوزان ، وان يميلوا إلى الألفاظ الأعجمية الشائمة ، وساعدهم على ذلك ما وجدوا في الشرق من محاولة الانطلاق من القيود الشعرية الموروثة ، ويستدل الذين يقولون بتأثير الاغاني الشعبية الاسبانية على الشعر في نشأة هذا الفن ان أوزان الموشحات لا تنطبق على أوزان الشعر المعروفة ، وانها تعتمد على صنعة الغناء أول ما تعتمد .

وإذا كانت الألفاني الشعبية الاسبانية غير موجودة الآن لتصح المقارنة بينها وبين الموشحات ، فهناك مقطوعات شعراء التروبادور الذين كانوا في جنوب فرانس في القرن العاشر

والحادي عشر ، فقد كانوا يتفنون بها ويتغزلون ويمدحون ويصفون ، إلا أنها كانت هزيلة المعاني لانتم القوافي الواحدة ، بل أنها لتتغير بعد كل ثلاثة أجزاء أو ستة ، مع محافظتها على الوزن الذي ترد فيه أولاً .

وقد عاشت هذه الأناشيد في القرن الثاني عشر ، وهو العصر الذي عاشت فيه الموشحات ، ولذلك يغلب على ظن ذلك الفريق ان تكون أناشيد التروبادور موشرة في نشأة الموشحات ، أو على الأقل عاملة على تأييد بعض خصائص التواشيح ، من عامية وانطلاق ، فان ما عرفه الأندلسيون العرب من ذلك الغناء مع ما عرفوا من بدء انطلاق الشعر ، حمل فريقاً منهم على ابتكار الفن الجديد ، فبدأوا أولاً بتقليد الشرق في الانطلاق ثم نظموا للغناء أيام ازدهاره ، ما جمع بين خواص الشعر والاغاني فكان فن الموشحات .

أوزان الموشح

بلاحظ قاري الموشحات أمراً مهماً في أوزانها ، إذ يراها خارجة على الأوزان المعروفة في كثير من الأحيان ، والواقع أن الموشحات على ضربين : الأول منها ما جاء على أوزان العرب ، والثاني ما لا وزن له فيها ، ولا المام له بها . فاما الضرب الأول ، وهو ما جاء على أوزان الشعر القديم فقسمان : قسم بقيت أفعاله وأبيانه موافقة لأوزان الشعر القديم فلم ترد فيها كلمة تخرجها عن تلك الأوزان ، فكان الشاعر لم يتحرر من الأوزان القديمة ، ولا استفاد من الرخص الجديدة ، ولذلك ترى بعض العلماء لا يعدون هذا شيئاً في فن الموشح ، ولا ينظرون إليه نظرة الاعتبار والتجويد ، وربما عدوه من قبيل الخمسات ، وقد يحتون ذلك الموشح محل الاعتبار ولو كان طبق الوزن القديم اذا كانت أفعاله وأبيانه مختلفة القوافي ، فانه يخرج عن الخمسات ويعتبر موشحاً أصيلاً كالموشح المشهور : م (٣)

إها السافي اليك المشكى قد دعوناك وان لم تسمع

نديم همت في عرته

وشرب الراح من راحته

كما استيقظ من سكرته

جذب الزق اليه واتكا وسقاني اربعا في اربع

وبسمون أشباه هذا الموشح بالموشح السعري اذ ينطبق كل

الانطباق على بحر (الرمل) ، أحد البحور الشريضية المعروفة

ولا يخرجها عن هذا البحر حركة ولا كلمة .

وأما القسم الثاني فهو ما التزمت فيه الأوزان القريبة ولكن

تخلت كلمة أو حركة أجنبية عن أن يكون طبق تلك الأوزان

كقول الشاح :

صبرت والصبر شيمة العاني ولم اقل المعطيل هجراني معذبي كفاني

فهذا من (المنسرح) لولا قوله : (معذبي كفاني) فانها

أخرجنا الموشح عن المنسرح ، ويسمى أشباه هذا الموشح بالموشح

السعري الذي أخرجته كلمة عن أصله ؛ ومثله :

ياويح صبر الى البرق (ي) له نظا وفي البكاء مع الورق (ي) له وطرا

فهذا من (البسيط) ، ولكن التزمت في الوسط قافية متحركة

بالكسر ، وتكلف الوشاح لها الى آخر الموشح .

ولو عدت نقرأ البيت مع مد حركة الكسر (آخر القاف)
وأشباعها حتى تصبح ياءً لوجدت ان البيت لم يخرج عن
البسيط فهو موشح شعري أفرجهت أخرته عن أصل .

هذان هما القسمان من الموشحات الشعرية التي تنطبق على
الأوزان القديمة ، ونلاحظ في هذا المقام أن الوشاحين كانوا
يعتمدون في الموشحات الشعرية على الأبحر الخفيفة أو القليلة
الاستعمال كالرمل والمزرح والمضارع والمقتضب والمجتث .

وهناك ضرب ثانٍ للموشحات وهو ما لا وزن له من
أوزان الشعر القريم ولا المقام له بها ، وهو الأكثر عدداً في
الموشحات ، البعيد حصراً في الأوزان .

وهذا الضرب لا يعرف إلا بالتاجين ، ولا يعلم صحبته من
مكسوره إلا في الغناء به على الأرنج ، وهو الأصل ، أو على
غير الأرنج ، وهو مستعار .

وكان ابن سناء الملك قد حاول أن يضع لهذه الموشحات المنحرفة من الأوزان القديمة ضوابط وأوزاناً خاصة ، فاعجزه ذلك ، وجاء أخيراً المستشرق الألماني (هارتمان) فحاول ارجاع تلك الأوزان إلى ستة وأربعين ومائة وزن او بحر ، مشتق من البحور أو الأوزان العربية المعروفة من قبل ، ولكن ذلك كان من قبيل التكلف أولاً ، ثم انه لم يستطع أن يمحصر كل الموشحات المعروفة ضمن نطاق من الأوزان المقررة ، إذ بقي كثير من الموشحات لا تخضع للأوزان التي أوجدها ، والسبب في ذلك كونها في الأصل متعلقة بالتلحين والغناء كما مر ، فتجد الأبيات في بعض الأحيان على أوزان الاقوال ومن أبحرها ، وتجد في بعض الأحيان الأخرى تبايناً بين أوزان الاقوال وأوزان الأبيات ، بسبب ما تقتضيه صناعة الغناء والالخان مما كان يعرف في أيام ازدهار النواشيع ، فصنعة الغناء إذن هي الميزان الذي توزن به الموشحات المضطربة الأوزان المختلفة الالخان ، وكان اللحن الموسيقي وحده هو الذي يعدل من اضطراب الموشح ، كما كان

الذوق الفني وحده هو الذي يميز بين الصحيح والسقيم ، ومن هنا تبين ان من العمل الذي لا يجدي ان نستقصي الاوزان ونحصرها في هذا الفن ، وان نحاول اقامة اوزان مقررة للنظم في الموشحات ؛ هذا ولا بد من الاشارة هنا الى انتفاع فريق من الوشاحين من بعض الاوزان المستحدثة والمشتقة من الاوزان القديمة ، ولنذكر هنا المحاولات في ايجاد اوزان جديدة كالمستطيل المأخوذ من الطويل والذي وزنه (مفاعيلن فعوان مفاعيلن فعوان) مرتين ، وكالممد (فاعلن فاعلان فاعلن فاعلان) مرتين ، وهو عكس المديد ، وكالمثد ووزنه (فاعلان مستفعلان) مرتين ، وكالمسرد ووزنه (مفاعيلن مفاعيلن فاعلان) مرتين ، وكالمطرده ووزنه (فاعلان مفاعيلن مفاعيلن) مرتين .

فكان من هذه الابحر الجديدة مع الابحر القديمة المهمة أو المستعملة ، ثروة عروضية للموشح فضلاً عما كان يُعتمد عليه في صنعة الغناء من وزن ايقاعي .

خصائص الموشح الفنية

أغراض الموشح

تناول الموشح جميع أغراض الشعر من غزل ووصف ومدح ورتاء ، وهجاء ، ومجون ، وزهد ، وسمي ما كان لازهد خاصة باسم (المكفّر) ، وجرت العادة في هذا النوع من الموشحات ألا يعمل إلا « على وزن موشح معروف ، وعلى توافي أقفاله ، وإن يختم بخرجة ذلك الموشح ليبدل على أنه مكفّره ومستقبل ربه عن شاعره ومستغفره » كما يقول ابن سناء الملك ص ٣٨ . وشاع نظم الموشح في الفنون والأغراض المختلفة وتجاوز فيه الوشاحون الغاية من اللطف « فاستظرفه الناس - كما قال ابن خلدون ص ٥٤٢ - جملةً ، الخاصة والكافة ، لسهولة تناوله وقرب طريقته » .

على أن هذه السهولة قد خرجت بالموشحات عن النظم المتين الرصين ، واللغة الجزلة القوية ، مما عرف به الشعر العربي

أيام ازدهاره ، وأخذت اللغة الادبية في الموشحات ترتدي طابع
اللين والرقّة حتى بلغت في بعضها مبلغ الركاكة والهلولة ، بل
مبلغ الاعتماد على العامية الهزيلة واللحن المغتفر المطلوب ، وتلك
غاية لا تحمد ، وإن كانت الغاية من الموشحات قبل كل شيء
استجلاء الطرب ، وإمتاع القلوب .

وشحنت الموشحات بأنواع الخيال المرح ، فكثرت الاستعارات
والمجازات والتشايه والكنايات والمحسنات اللفظية والمعنوية
كالتورية والجناس وغيرها .

وغنيت الموشحات بالألفاظ الموسيقية العذبة التي تسحر
بمناها ، أكثر مما تؤثر بمعناها ، والتي تطرب بركتها ، أكثر مما
تعجب بصحتها ، فقد كان اللفظ المطرب هو المقصود ، وإذا
توالت الجمل على تراخٍ في المعاني وعدم ترابط بين أجزائها
فإن ذلك لم يكن عيباً ما دامت فكرة التغمي هي السائدة ،
وما دام الإيقاع الحسن هو المطلوب ، ولذلك تقف عند
بعض الموشحات وقفة من لا يجد بين المعاني وشائج وثيقة

تربط بعضها إلى بعض ربطاً محكمًا ، لان التسلسل المنطقي في
العبارات ، والتتابع الفكري في المعاني ، لا يقصدان بمقدار ما يقصد
حسن توالي الكلمات ، وجمال جرسها الموسيقي ، وعضوبة وقعها
في النفس والأذن .



تألق الموشح

وفاة الزميل

لا ريب في أن تعدد الأوزان واختلاف القوافي ، والاعتماد على الألحان ، والضرب على الآلات ، والجنوح إلى المعاني الطريفة والأفكار الغريبة ، كل ذلك كان السبيل إلى أداء الغرض الذي ترمي إليه الموشحات ، من اشاعة الطرب في النفوس وإدخال اللذة إلى القلوب ، وهذا سر رواج فن التوشيح في الاندلس ، بلد الهوى اللعوب ، والنعمة الوارفة ، ومنه انتقل إلى بلاد المغرب ، وعنها أخذ المشرق هذا الفن البديع ، واسكنه لم يلحق رجال الاندلس السابقين إليه ، وليس معنى هذا ان المشرق لم يجلب في هذا المضمار ، ولا كان لشعرائه من التجويد فيه نصيب ، وهذا ابن سناء الملك المصري في دار الطراز ، يعقب على موشحات الاندلسيين بموشحات من نظمه ، وفيها ما هو من الفرر في هذا الفن ، فكأنما كان يتحدث المتقدمين بما جاء به ، رغم إظهاره للتواضع في مقدمة

كتابه ، واعتذاره بانه لم يأخذ هذا الفن من منبعه ، ويقول
ابن خلدون عن إحدى موشحات ابن سناء الملك ، انها اشتهرت
شرقاً وغرباً ، وهي التي يقول في مطلعها تمهيداً :

يا حبيبي ارفع حجاب النور عن
تظنر المسك على الكافور في

العتار
جلنار

ثم يبدأ بالأفعال والأبيات فيقول :

كلبي . يا سحب تيجان الرنى بالحلى
واجملي . سوارها منعطب الجدول
ياسما . فيك وفي الأرض نجوم وما
كلا . أخفيت نجماً أظهرت انجماً
وهي ما . تهطل الا بالكلى والدماء
فاهطلي . على قطوف الكرم كي تنجلي
واقلي . للدن طعم الشهد والفؤوقلى
تنقذ . كالكوكب الذري المرصد
يعتقد . فيها الجوسي بما يعتقد
فائد . يا ساقى الراح بها واعتمد
وامل لي . حق تراني عنك في معزل
قليل . فالراح كالعشق ان يزد يقتل

لا اليم . في شرب صهبا وفي عشق ريم .
فالتعم عيش جديد ومدام قديم
لا اهييم . الا يهذين فقم يا نديم
واجل لي . من أكوس خبرت من فوفن
الذلي . من نكهة العنبر والمدن

(المقدمة ٤٨ هـ والمستطرف ٢٧٨/٢ وازهار الرياض ٢١٦/٢)

وهكذا نجد فن التوشيح ينتقل من المغرب الى المشرق
ويخرج من أفق المغنيين وأهل اللهو والطرب ، إلى آفاق
رجال العلم وشيوخ الأدب ، ثم يستفيض بين الناس ، وينحدر
إلى العامة بعد ان كان يأخذ منها الطرفة والملحة ، وإذا هو
شيء جديد ، وفن عاى اسمه (الزجل) .

يقول ابن خلدون : المقدمة ٤٨ هـ والازهار ٢١٧/٢

« ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور
لسلاسته ، وتميق كلامه ، وترصيع أجزائه ، نسجت العامة
من أهل الأندلس على منواله ، ونظموا في طريقته بلغتهم
الحضرية ، من غير أن يلتزموا فيها اعرابا ، وامتحدثوا فنا

سموه (الزجل) والتزموا النظم فيه على منحهم الى هذا العهد ،
فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة .
فالموشحات إذن هي التي أغرت العامة بان ينسجوا على منوالها ،
ولكن بطريقتهم الخاصة ، فأدى الامر إلى الانحدار باللغة ؛
ومن أجل ذلك قال بعضهم عن فن الموشح : إنه كان ذا أثر
سيء في الأدب .

والحقيقة ان فن الموشحات لم يكن صاحب الاثر
السيء في الأدب ، لأن الشعب العربي نفسه ، كان يسير نحو
المعجمة ، بسبب كثرة الاختلاط والامتزاج بالاعاجم في المغرب
والمشرق ، وكان العلماء يجأرون بالشكوى من استفحال المعجمة ،
وكان (الزجل) وغيره صورة عن الطبائع الشاعرة التي لا تستطيع
الانصاح عن شعورها بالكلام الفصيح ، فن غير الحق ان
نحمل فن التوشيح جريرة المبالغة في الانحدار الى هاوية المعجمة ،
لان فن التوشيح نفسه سقط في هذه الهوة حين قالوا بوجوب

تضمنه الكلام العامي والسوفي ، وجوب نأيه بنفسه عن القواعد المرعية في صحة الكلام .

وإذا لم يكن الموشح مظهرًا من الانحدار في الشعر ، فهو ليس مظهرًا لا سمي ما بلغه الشعر من الرقي أيضًا ، لأن الروائع التي خالفها المخالدون في الأدب كأبي تمام والبحتري وأبي الطيب ، وغيرهم كثير ، ليست في حكم التقدير والاعتبار باقل من الموشح ، وعندنا أنها أروع وابدع وأبرع .

وهنا لا بد من الاقرار بأن الموشح ثمرة من ثمرات الفكر الشاعر ، والعاطفة المتوقدة ، وصورة من صور الأدب ، ومظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ، ومن الجور على أنفسنا وعلى الأدب أن نقرر أن الشعر ارتقى صعودًا ، أو انحدر صديقًا ، فكان الموشح ؛ انه فن من فنون الشعر ، لم يحاول أن يقهر القصيدة العربية فيقنيها لتبقى له مظاهر الابداع ، ولا حاولت القصيدة أن تفنيه لتظل خالدة وحدها .

لقد سارت القصيدة العربية باوزانها وأغراضها الى يوم الناس

هذا ، على ما يعرف عنها ، ولكن نبت على جذعها فرع تعبه من
من تعبه ، وطيب بما طيب فسات له ثمرة غير الأصل ،
فيها لذة ومتمعة ، ولها من الأم الغذاء والمستند ، ولكنها غير
الثمرة الأصلية على كل حال ، طعمًا وشكلًا ولونًا .

وقد استطاب الناس هذه الثمرة الجديدة في الأدب والغناء
وأولعوا بها ، واحتفظوا بروائعها ، وما يزال الناس في المشرق
والمغرب العربيين يذكرون (الموشحات الاندلسية) و (النوبات
الاندلسية) كما تذكر الروائع من موسيقى الغرب وآدابه ،
ولعل تعلق الناس بهذا اللون من الأدب والغناء ، يرجع إلى
رئيس الحنين إلى الأندلس ، وتهف القلوب للمجد الضائع ،
والفردوس المفقود ؛ هذا بالإضافة إلى ما في نظم الموشحات
وما في ألحانها من عذوبة وروعة وإلا فلِمَ لا تتردد كلمة
(الأندلس) حتى يشعر العربي والمسلم بحج من السحر الأخاذ والعبق
الكريم ؟ لم يحرصون على أن يحتفظوا بهذه الصفة (الاندلسية) لطائفة
من الأغاني والألحان حين يقولون (نوبة أو موسيقى أندلسية)

ولم يطلق عليها المغرب العربي إلى اليوم هذا الاسم (كلام غرناطة)^(١)
لو لم يكن إلى جانب المتعة الفنية ، ذكرى نفسية تكمن في
أعماق النفوس العربية والمسلمة ؟

ان فن الموشح الذي كان صنو الغناء ، والذي ازدهر بازدهار
الموسيقى العربية منذ حوالي ثمانمائة عام ، استطاع أن يحمل في
كيانه الخاص ، عنصر الخلود والروعة ، فأعجب الأفكار ، وأطرب
النفوس ، وخلق الافئدة ، وناقته الايام كاحسن ما تناقل
من الارث الجيب .

(١) المستشرق هنري بيردس في كتابه (الشعر الاندلسي) بالفرنسية ص ٣٩٣

السابقون الى التوشيح

رأيت أن العبقرية الاولى التي تفتحت عن فن الموشح ،
كانت عبقرية أندلسية خالصة ، غرست للناس غرساً تمهيدته
الألحان ، وسهرت عليه الأهواء ، فما وزكاً ، وآتى أكله
يانعاً شهياً .

وقد زعم قوم ان السابق الى الموشح شاعر عباسي مشهور
هو ابن المعتز (المتوفى سنة ٢٩٦) ونسبوا اليه الموشح المعروف :

أبها السابق إليك المشكى قد دعوناك وإن لم تسمع

والصحيح الثابت أن هذا الموشح أندلسي ، نسبه صاحب
طبقات الأطباء إلى الحفيري أبي بكر بن زُهَيْر^(١) الوشاح المشهور .
أضف إلى هذا أننا لا نعرف ابن المعتز وشاحاً ، او ممارساً
لهذه الصنعة الشعرية الجديدة في جميع التراجم التي تحدثت عنه

(١) ورد في مقدمة ابن خلدون اسم (زُهَيْر) مصحفاً هكذا
(زُهَيْر) وهو خطأ مطبعي ، ووقع ذلك ايضاً في كتاب العذارى
المائسات في الأزجال والموشحات ، لجامعة فيليب قعدان الحازن .

ولا يضم ديوانه من الموشحات غير ذلك الموشح ، مع أنه كان صاحب لهُو وطرب ومتمعة ، والموشحات تناسب من كان في طباعه وأخلاقه ، فلو كان المخترع الأول للموشحات ، أو كان له من هذا الفن نصيب ، لوجد في مجانه لرحب انطلاقاً لعواطفه وشاعريته وأهوائه ؛ هذا إلى ان مؤرخي الأدب القدامى يذكرون عن ابن سناء الملك ، المتوفى في أوائل القرن السابع ، أنه أول من أدخل هذا الفن إلى المشرق ، وبذلك يظل فضل السبق إلى الموشحات مقصوراً على الأندلسيين ؛ وقد ذهب ابن بسام في ذخيرته (١/٢) وغيره من الباحثين ، إلى أن أول من وضع أوزان هذه الموشحات في أفق الأندلس ، واخترع طريقتهما في نهاية القرن الثالث هو محمد بن محمود القنبري الضري من مدينة قبرة في الأندلس (او هو محمد بن محمود ... كما في أزهار الرياض ٢٥٢/٢ وغيره)

وقالوا إنه كان يصنعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها . على الأعراب المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والمعجمي (٤)

ويسميه المركب (أي كلمة الخرجة) ويضع عليه الموشحة دون
تضمين لها ولا اغصان (القليلة ١/٢)

وذكر ابن خلدون ان المخترع لهذا الفن في جزيرة الاندلس
مقرم بن معاني القبري (لا مقدم بن معافر الفريري كما ورد في
المقدمة مصحفاً ومحرفاً ، وعنه نقل بعض الأدباء) وهو من شعراء
الأمير عبدالله بن محمد المرواني الذي امتد حكمه من ٢٧٥ الى ٣٠٠ هـ
وعن مقدم هذا أخذ ابن عبرة صاحب كتاب (العقد) ولم
يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما ، فكان
اول من برع في هذا الشأن بدمها عبادة القزاز ، شاعر المعتصم
ابن صمادح صاحب المرية ، وقد ذكر الأعم البطليوسي انه سمع
ابا بكر بن زهر يقول : « كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز »
(المقدمة ٥٤٢ و ازهار الرياض ٢٠٧/٢)

وكذلك حكى الكاتب ابو الحسن علي بن سعيد العنسي في
كتابه « المقتطف من أزهار الطرّف » ان الحجارى ذكر
في كتابه « المسهب في غرائب المغرب » ان المخترع للموشحات

بجزيرة الأندلس هو المقرم بن معافى القبري من شعراء الأمير
عبدالله المرواني ، وأخذ عنه ابو عمر بن عبيد ربه صاحب (العقد)
ثم غلبها عليها المتأخرون ، وأول من برع فيها عبادة القزاز
شاعر المعتصم صاحب المرية . (ازهار الرياض ٢/٢٥٢)

وقال ابن بسام في الذخيرة (٢/٢) « وقيل إن ابن
عبد ربه صاحب العقد اول من سبق الى هذا النوع من
الموشحات عندنا ، ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي فكان
اول من أكثر فيها من التضمين في المراكيز » ثم نشأ ابو بكر
عبادة بن دار السمر (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) ، فكملت على يدنا
الصنعة الجديدة ، ولم يظهر للسابقين الأولين ذكر مع المحدثين .
ومن هنا يتبين لك اضطراب القول في اول مخترع لهذا
الفن ، شأن كل جديد من الامور ، وان محمد بن حمود
(او محمود) القبري ، او المقدم بن معافى القبري ، كانا السابقين
وتبعهما ابن عبد ربه ثم جاء المجودون من بعد ذلك .

فيمكن ان يقال اذن إن القرن الثالث الهجري هو اول

عهد ظهرت فيه الموشحات الابتدائية التي لم يستقم أمرها ،
ولم ترسخ دعائها ؛ وان القرن الرابع الهجري الذي بلغ فيه
فن الغناء أوجه وغاية مجده ، هو العهد الذي ازدهرت فيه
الموشحات الكاملة ، وان الوشاحين الذين جاءوا قبل القرن الرابع
لم يبلغوا مبلغ المجودين في ذلك العصر الذهبي للموشح ، والسرى
في ذلك اعتماد الموشح على الأتغام والايقاع وشد الأوتار ،
وما يلائم ذلك من حياة وادعة نشد المتعة والطرب ، مما تهيأ
كاملاً حوالى القرن الرابع .

وعلى هذا فيجب أن نلتبس التجويد في الموشحات منذ القرن
الرابع الهجري وما يليه ، على أيدي القزاز وابن ماء السماء وغيرهما
حتى إذا جاء القرن السادس الهجري وجدنا كتاباً يؤلفه ابن سناء
الملك ويسميه دار الطراز يتحدث فيه عن صنعة الموشح ، وينقل
إينا فيه كثيراً من الموشحات القديمة ، والموشحات التي نظمها
هو نفسه ؛ وقد نشر هذا الكتاب الدكتور جودة الركابي بعني
به عناية كبيرة ، فوقع في نحو خمسين ومائة صحيفة من القطع

الوسط والحرف الدقيق ، ويتألف في الأصل من مقدمة المؤلف تحدث فيها عن حد الموشحات ، وقواعد عروضها ، وما اصطلح عليه فيها ، وضرب لذلك الامثال ؛ ومن قسمين في الاول منها بعض موشحات الاندلسيين والمغاربية ، وهي التي أخذ منها الأمثلة على القواعد المذكورة في المقدمة ، ويبلغ عددها اربعة وثلاثين موشحاً .

وفي القسم الثاني موشحات ابن سناء الملك نفسه ، مرتبة على نسق الموشحات المذكورة في القسم الاول ، ويبلغ عددها خمسة وثلاثين موشحاً .

ولعل مقدمة ابن سناء الملك أم ما في الكتاب ، لأنه شرح فيها النظرية الفنية في عمل الموشحات ، والقواعد المرعية في هذا الفن ، ويكون بهذا أول من قام بتحديد اصول الموشح بصورة واضحة بينة ، وان كان الذين سبقوه الى الكلام على الموشحات قد أشاروا بعض الاشارات الى تلك الاصول ،

الا ان الوشاحين الاندلسيين لم يذكروا لنا بصورة جلية الاسم
التي يجب أن يقوم عليها الموشح .

وتحدث المؤلف عن أوزان الموشحات واغراضها وعن تسمية
الكتاب باسم (دار الطراز) وقد كان ينبغي أن يسميه بغير
هذا ، كقانون الموشحات أو توشية التوشيح أو عقد الموشح أو غيره ،
ولكنه لم يجد أشمل وأكمل من لفظ (دار الطراز) لأن
معنى (الطراز) هو أجود الثياب المعلمة المطرزة التي تعمل
للسلطان ، ولأن معنى (الموشح) هو الثوب الموشى المطرز وعلى
هذا تكون (دار الطراز) هي الدار التي يعمل فيها حريري
الموشحات ومذهبها وتحفها وطرقها . فالكتاب هو تلك الدار
وان لم يكن الدار فهو الجار ، كما يقول المؤلف .

ويعتذر — بأخلاق العالم المتواضع — ان كان في موشحاته
مالا يبلغ مبلغ الموشحات الاندلسية الفاخرة ، لانه لم يولد في الاندلس ،
ولا نشأ في المغرب ، ولا سكن اشبيلية ، ولا ارسى على مرسية ،
ولا عبر على مكناسة ، ولا سمع الأرنج ، ولا لحق دولة المعتمد

وابن صمداح ، ولا اتي كبار الوشاحين أمثال الأعمى وابن بقي
وعبادة والحصري ، ولا أخذ عن شيخ متقدم في هذا العلم ،
ولا وقع اليه مصنف في هذا الفن ؛ ثم اورد الموشحات المختارة
وابعها بموشحاته التي صنعها بنفسه .

والذي نلاحظه على ابن سناء الملك انه كان في بعض المواضع
بعيداً عن الوضوح والطبع والسلاسة ، متأثراً بأسلوب عصره من
حيث كثرة التأنق في المفردات والسجع ؛

وشيء آخر هو انه لم ينسب الموشحات التي أوردها الى
أصحابها ، وهي من أفضل ما قيل في هذا الفن من قبل ، ومنها
استمد المؤلف القواعد التي ذكرها كأصول صرعية في التوشيح ؛
وإهماله هذا لذكر أصحاب الموشحات اهمال لا يُرضي ، وكان
على صديقنا الناشر أن يتلافاه حين رجع إلى المصادر المتعددة
اثناء التحقيق والطبع ، وألم بأصحابها ، وقابل بين ما طبع من
الموشحات وما كتب عنها من قبل ، وبين ما هو في نسخة
المؤلف التي يحقق فيها ، ولكنني أحسب ذلك شأن كل عمل

انساني يذهل صاحبه عن بعض ما يتعلق به ، رغم العناية الفائقة ؛
وشيء يسير آخر ، هو ترك الناشر شرح بعض الأفكار الواردة
في الموشحات ، مما يبدق فهمه على الدارسين ويسهل ايضاحه
على المدرسين ، وكان من الخير لو استدرك هذا لانه لا يعجزه .
وشيء ثالث هو ان قليلاً من التشكيل محرف لا تستقيم
معه بعض الكلمات ، وعسى ان يتلافى الناشر ذلك فيما بعد .
وأراني بعدُ مقدراً جهد صديقنا الناشر وبحسبه ان يضع
بين أيدي الناس كتاباً كان مفقوداً هو من أحسن المصادر
في فن التوشيح ، مطبوعاً أحسن طبع ، معنياً به خير عناية ،
ثم ان ابن سناء الملك ، وقد أراد ان يسطر بعض الأصول
والقواعد المرعية في هذا الفن ، لم يتوخ أن يذكر أسماء النابهين
من الوشاحين في الاندلس ، ولا أن ينوه بشأنهم ، وقد استدرك
الناشر ذلك ببعض التعريف بأولئك الوشاحين دون الاضافة ، كما
عرف مؤلف الكتاب ، فاستحق الناشر على صنيعه وتعبه ، الجزيل
من الشناء .

عبارة التوشيح

آلت الأندلس الى العرب الفاتحين سنة اثنين وتسعين للهجرة ، وظلت تحكم من قبل الولاة حتى كان عهد بني أمية الجديد ، حين دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس واستولى عليها سنة تسع وثلاثين ومائة ، واستمر الحكم والخلافة الأمويان في الأندلس حتى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة حيث قام ملك بني حمود ، ثم انقضى سنة ستين وأربعمائة ، وآل الأمر الى ملوك الطوائف في الأندلس ، وتفرق ذلك الملك في جماعات من الموالي والوزراء وكبار العرب والبربر : تغلب بعضهم على بعض ، حتى أعطوا الأتوة للملك الفرنجة ، ثم أخذهم من الذل والفوضى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، حين نزل الجزيرة الخضراء سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، ولم يزل يستولي على البلاد حتى تم له ما أراد ، وخاطب الخليفة العباسي في بغداد فعمد له على المغرب والأندلس ، واستقر فيها ملك المرابطين (الملائيين) حتى توفي سنة خمسمائة ، واستمر المرابطون

في الحكم حتى غلب الموحدون على بلاد المغرب سنة احدى وخمسين
وخمسمائة ، واستولوا على الأندلس ، وثار الفتن ، وحكم ابن هود ،
ثم ثار جدني الأحمر وبويح له سنة تسع وعشرين وستمائة ، وضلت
الأمور في اضطراب ، والعدو يتقدم ويستولي على البلاد ،
والقوم في نزاع ، يغدر بعضهم ببعض ، ويقتل بعضهم بعضاً ،
حتى تغاب عدوم على الجزيرة الخضراء وأخذها صلحاً سنة
ثلاث وأربعين وسبعمائة ، ولم يزل الأمر في الأندلس بين أيدي
ملوك أصرع ، وقواد تغدر ، وشعب يتحدر ، وزعماء تغاصر ،
حتى تقاص الظل العربي وانكش الإسلام ، فكانت الأندلس غنيمة
الانحلال ، وضحية الأهواء ، سنة سبع وتسعين وثمانمائة .

وما كان لمثل هذا التاريخ الطويل الحافل ان يوجز في سطور ،
لولا اننا نريد أن نذكر القارئ الكريم بأطوار الحكم التي
صرت على الأندلس ، والأزمان التي عاش فيها الوشاحون الذين
سنتحدث عنهم ، اذ كان من حق الدراسة ان تمثل أزمانهم ، ولو على
سبيل الأيجاز ، لتتخيل تسلسلهم وتعاقبهم في الفن الذي شرحنا
أصوله وفروعه ؛ واذا كانت من العسر أن تأتي على جميع

الوشاحين : الأندلسيين والمغاربة والمشاركة بالترجمة والاستشهاد ،
فلا أقل من الإشارة الى بعض العباقرة منهم ، أولي الشهرة والتأثير
في نشأة هذا الفن وتطوره ؛ وهام أولاء على تسلسل الأزمان (١) :

ابن هبيرة

(٢٤٦ - ٣٢٨) هـ (٨٦٠ - ٩٤٠) م

ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه ، الامام الأديب ،
وصاحب (العقد) . من أهل قرطبة ، كان جده الأعلى (سالم)
مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية .

(١) روجعت للتراجم والمنتخبات ، والمدراسة هامة ، مراجع كثيرة أهمها:
الخطط ، والاسلام والحضارة العربية لكرد علي . تاريخ الأندلس لأشباح
(الألماني) . الاوضاع الإسلامية لديونين (بالفرنسي) . الشعر الأندلسي
لبيره س (بالفرنسي) . الأعلام للزركلي . مطمح الأنفس وقلائد
العقيان للفتح بن خاقان . معجم الأدباء لياقوت . يتيمة الدهر للنعالي .
وفيات الأعيان لابن خلكان . المقدمة لابن خلدون . فوات الوفيات للإصلاح
الكتبي . نفع الطيب وازهار الرياض للمعري . الذخيرة لابن بسام . الاحاطة
للسان الدين بن الخطيب . دار الطراز لابن سناء الملك . الشعر في العصر
الأيوني (بافرنسي) ومحاضرات في الادب الأندلسي للركاني المستطرف
للأبشيبي . العقد لابن عبد ربه . الصبح للقلقشندي تقويم الخبيبي الدمشقي .
وكتب الأدب الحديثة في مصر والشام ولبنان للبستاني والحمصي والفاخوري وغيرهم

كان ابن عبد ربه شاعراً مشهوراً، وأديباً مذكوراً، وعالمًا
كثير المحفوظات والاطلاع على أخبار الأدباء، فجمعها في العقد،
وأبلغه العلم والأدب ما يشتهي من الغنى بعد الفقر، إذ كان في
العلم ثقة، وفي الأدب حجة، وفي الشعر غاية؛ استطارت
شهرته في المشرق والمغرب ولقب (بمليح الأندلس)؛ قيل
إن المتنبي كان في جامع عمرو بن العاص فجاءه أندلسي يريد أن
يجمع إليه، فقال له المتنبي: أنشدني لمليح الأندلس، فأشده قول
ابن عبد ربه:

يا لؤلؤاً يسبي العقول انيقا	ورشا بتقطيع القلوب رقيقا
ما ان رأيت ولا سمعت بمثله	دراً يعود من الحياء عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه	أبصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره في رقعة	ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فاستعاد المتنبي الأبيات وقال: «يا ابن عبد ربه، لقد تأنيك

العراق حبواً» .

ولابن عبد ربه القصائد (المحتصات)، وهي قصائد ومقاطع

في المواعظ والزهد، تقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل.

وكتابه (العقد) من أشهر كتب الأدب ، وله أراجيز في
في تاريخ الخلفاء الراشدين ، وغيرهم ، وطبع من ديوانه خمس
قصائد ، وأصيب بالفالج قبل وفاته بأيام .

يوسف بن هرون الرمادي

(٤٠٣ - ٠٠٠) هـ (١٠١٢ - ٠٠٠) م

ابو عمر يوسف الكندي الرمادي ، نسبةً الى رمادة وهي
بلدة في المغرب ، كان أصله منها ،
شاعر أندلسي ، مولده ووفاته في قرطبة ، عالي الطبقة ،
كثير الشعر ، سريع القول ، مشهور عند الخاصة والعامة هناك
لسلوكة في فنون المنظوم مسالك تنفق عند الجميع ، اذ كان
يحزن في الشعر ويسهل ، فاجمع القوم على تفضيله .
كان معاصراً لابي الطيب المتنبي ، وكان كثير من شيوخ
الأدب يقولون : « فتح الشعر بكندة وختم بكندة » يعنون
بذلك امرأ القيس ، والمتنبي والرمادي .

لزم ابا علي القالي صاحب الأملالي حينما قصد الأندلس سنة ٣٣٠ وأخذ عنه وروى كتابه (النوادر) ومدحه بشعر جيد .
نسب اليه من الشعر في دولة الخلافة ما ألقاه في السجن طويلاً ، وأدرك الفتنة فخاض لجتها ، ولحقته فاقة لزمته وأنهكته حتى أهلكته ، وقد عمر طويلاً ، وخلف كثيراً من الشعر ، وكتاباً له في (الطير) ومن شعره :

بدرٌ بدأ ، يحمل شمساً بدت	وحدوها في الحسن من حدء
تغرُّب في فيه ولكنها	من بعد ذا تطلم في خده
وله :	

في اي جارحة اصون معذبي	سامت من التعذيب والتنكيل
ان قلت في بصري فتم مدامي	او قلت في كبدي فتم غليلي
وثلاث شيبات نزلن بفرقي	فعلت ان نزولهن رحيلي
طلعت ثلاث في نزول ثلاثة	واش ، ووجه مراقب ، وثقيل .

ابن ماء السماء

(٤٢٢ - ٠٠٠) هـ (١٠٣١ - ٠٠٠) م

أبو بكر عبادة بن عبد الله بن محمد بن عبادة بن ماء السماء ، من ذرية سعد بن عبادة الانصاري ، وقيل له ابن ماء السماء لجدِّهم الاول . كان عبادة رأس الشعراء ، منتجعاً بشعره ، بعيد

الهمة ، وهو الذي أقام عماد الموشحات وهذب ألقاضها وأوضاعها
وأشهر بها اشتهاً رآ غلب عليه ، فكانت لم تسمع إلا منه .

صاعت له مائة مثقال فاعتم عليها وكانت سبب وفاته في مالقة

وله شعر حسن منه قوله :

لا تشكون إذا عثر	ت إلى خليطٍ سوء حالك
فيربك ألواناً من الـ	إذلال لم نخطر ببالك
اياك ان تدري يمي	نك ما يدور على شمالك
واصبر على نوب الزما	ن وان رمت بك في المهالك
والى الذي اغنى وافر	نى اضرع وسلكه صلاح حالك

ابن الفزاز (القرن الخامس)

ابو عبدالله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ،

(وعبادة القزاز أيضاً) شاعر المعتصم بن صمادح صاحب (المرية)

المتوفى سنة ٤٨٤ هـ .

من مشهوري الشعراء والأدباء ، وأكثر ما ذكر اسمه وحفظ

نظمه في أوزان الموشحات ، وقد برع في نظمها ، وشهد له

المتقدمون بالتفوق والتقدم ؛ فقال ابو بكر بن زهر : كل

الوشاحين عيال على عبادة القزاز ؛ وكان فيما اتفق له من ذلك قوله :

بدرٌ تيمٌ	شمسٌ ضحى	غصنٌ نقا	مسكٌ شم
ما انمٌ	ما اوضحا	ما اورقا	ما انم
لا جرمٌ	مَنْ لِحما	قد عشقا	قد حريمٌ

وزعموا انه لم يسبق عبادة وشاحٌ من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك الطوائف ، وجاء مصداً خلفه منهم ابن ارفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة .

ابو الحسن المصري

(٤٨٨ - ٥٠٠) هـ (١٠٩٥ - ٥٠٠) م

علي بن عبد الغني الفهمري المُقريء الضرير ، ولد في القيروان وتوفي في طنجة ، قال عنه ابن بسام : « كان بحر براءة ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، طراً على جزيرة الاندلس في منتصف المائة الخامسة بعد خراب وطنه من القيروان ؛ فهادته الملوك وتنافسوا فيه » .

كان ضيق العطن ، يتلفت الى الهجاء تلفت الظمان الى الماء . وكان عالماً بالقراءات وطرقها ، وأقرأ الناس للقرآن الكريم بسبته وغيرها ، وله قصيدة نظمها في قراءات نافع ، وديوان

شعر جيد ، ومن أشهر شعره القصيدة السائرة التي غني بها كثيراً :

يا ليل الصب متى غده اقيام الساعة موعده
رقد الثمار فارقه اسف للبين يردده

وقد عارضها كثير من الشعراء ، فمن القدماء الذين عارضوها

ابو الفضائل القمراوي فقال من قصيدته :

قد ملّ مريضك عودهُ ورتي لأسيرك حسده
لم يبق جفاك سوى نفس زفرات الشوق تصعده

وقد طبعت المعارضات الحديثة في رسالة صغيرة عنوانها

(معارضات يا ليل الصب) وليس فيها كل المعارضات الحديثة

ولا القديمة .

وكان المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية - ويسمى بالاندلسيون

حمص أيضاً - بعث الى أبي الحسن الحضري بخمسمائة دينار

ليحضر اليه من القيروان ، وكان الروم اذ ذلك مسيطرين على

البحر فكتب الى المعتمد :

امرني بركوب البحر اقطعه غيري ، لك الخير ، فاخصمه بذالداه

ما انت نوح فتنجيني سفينته ولا المسيح انا أمشي على الماء

ودخل الاندلس بعد ذلك ومدح المعتمد ، ثم توفي في طنجة .

وابو الحسن هـ هذا ابن خالة ابي اسحق الحصري صاحب
زهر الآداب المتوفى في القيروان سنة ٤١٣ هـ على رأي
ابن خلكان ، أو سنة ٤٥٣ على رأي ابن بسام

ابن بقي

(٥٤٠ - ٠٠) هـ (١١٤٥ - ٠٠) م

ابو بكر بن يحيى بن عبدالرحمن بن بقي الاندلسي القرطبي :
شاعر ذو روائع في الشعر ، اشتهر في اجادة الموشحات ،
وتنقل في كثير من البلاد المتكاسماً للرزق ، وكان الحرمان الزم
له من ظله ، حتى وجد من أقطعه جانباً من العيش فمدحه .
وأنتى عليه المترجمون له ، وعدوه من محاسن دولة الماثمين وذكروا
له كثيراً من جيد الشعر كقوله :

يا افتك الناس الحائطاً واطيهم ريقاً مقى كان فيك الصابُ والعسلُ
في سخن خدك وهي الشمس طالعة وردٌ يزيدك فيه الراح والحجل
إيمان حبك في قلبي يجدره من خدك الكتب او من لحظك الرسل

وحياة الشعراء في دولة الماثمين تأتي بعد من كانوا في عهد

ملوك الطوائف كالفزاز وابن ارفع رأسه ، ويعتبر ابن بقي
والأهمى التطيبي أسبق من جاء في عهد الملتهمين .

زعموا ان أبا بكر بن زهر قال : ما حسدت قط وشاحاً

على قول الا ابن بقي حين وقع له قوله :

اما ترى احداً في مجده العالي لا يلحق
اطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرقاً

ومن أجل ما وقع له من الموشحات قوله :

عبت الشوق بقلبي فاشتكى ألم الوجد ، فلبت ادعني

ايها الناس فؤادي شغيف

وهو من بني الهوى لا يُنصف

كم اداريه ودمعي يكف

ايها الشادن من علائكما بسهام اللحظ قتل السبع

بدر تم تحت ليل اغطس

طالع في غصن بان منتشي

اهيف القدر بجحد ارقس

ساحر الطرف وكم قد فتكا بقلوب درعت بالاضلع

واثني يهز من سكر الصبا

اي رُم رمته فاجتنباً

كفضيب هزه ريح الصبا

قلت هب لي يا حبيبي وصلكا واطرح اسباب شجري ودع .

قال خدي زهره مذ فوفا

جرّد الطرف حساماً مرهفا

حذراً منه بالاً يقطفا

ان من رام حناه هلكا فازل عنك اماني الطمع

ذاب قلبي من هوى ظبي غريره

وجبه في الدجن صبح مستنير

وفزادي بين كفيه اسير

لم اجد للصبر عنه مسلكا فاتصاري بانسكاب الادمع

وَيُنْحَلِ إِلَىٰ أَنْ هَذَا الْمَوْشِحُ هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي عَارَضَهُ ابْنُ زُهَيْرٍ

فِي مَوْشِحِهِ الْمَشْهُورِ الَّذِي يَقُولُ فِي مَطْلَعِهِ :

أيها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع

ابو عمى التبطلي (النصف الاول من القرن السادس)

ابو جعفر بن هريره ، ابوبكر التبطلي (والتبطلي والطائبي)

الوشاح المشهور ، من شعراء الاندلس في دولة الملمثيين (المرابطيين)

اوائل القرن السادس للهجرة ، سكن مرسية ومات في مقتبل العمر

وضاع كثير من أخباره ، وبقيت شهرته ، واثار عبقريته ،
كان كثير الوقوع في الناس ، قيل له مرة : يا أبا بكر ، كم تقع في
الناس ! فقال : أنا أعمى وهم لا يبرحون حُفراً ، فما عذري في
وقوعي فيهم ، فقال السائل : « والله لا كنت قط حفرة لك »
وجعل يواليه بره ورفده .

قال عنه الفتح في القلائد : « له ذهن يكشف الغامض الذي
يخفى ، وجاء بالنادر الذي أعجز ، ونظم أخبار الأمم المفترقة في
لغة القريض ، وأسمها أطرب من نعم معبد والغريض ، وكان
بالأندلس سرّاً للاحسان الا انه اختصر حين احتُفِر ، واعتُبط
عندما استُبشِر به واغتُبط » .

وذكر ابن خلدون : ان جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس
في اشبيلية ، وكان كل واحد منهم اصطنع موشحةً وتأنق فيها ،
فتقدم الأعمى التليطلي للانشاد وافتتح موشحته بقوله :

ضاحك عن 'جان' . سافر عن بدر . ضاق عنه الزمان . وحواه صدري

آه مما أجدُ شفي ما أجدُ

قام بي وقعد باطشٌ متند

كما قلت قد قال لي ابن قن

واثنى خوط بان . ذامه زمر نضر . ما بئنه يدان . للصبا والقطر
فلما سمع الوشاحون قوله خرّق ابن بقي موشحته ، وتبعه الباؤون .

الحكيم ابو بكر بن باجة (القرن السادس)

صاحب التلاحين المشهورة المعروفة ، ناصر ابن بقي والأعمى
الطليطي ، وكان مقدماً عند ابن تيفلوت صاحب سرقسطة ،
ألقى ابو بكر ذات يوم على بعض القينات موشحته في المديح
التي اولها :

جرر الذيل ايما جرر وصل الشكر منك بالشكر

وختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لأمير الملا ابي بكر

فطرب ابن تيفلوت وصاح : واظرباه ، وشق ثيابه ، وقال

ما أحسن ما بدأت به وما ختمت ! وحلف بالايان المغاظة الا

يمشي ابن باجة الى داره الا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء

العاقبة ، فاحتال بان جعل في نعله ذهباً ومشى عليه .

ابو بكر بن زهر

(٥٠٧ - ٥٩٥) هـ (١١١٣ - ١١٩٩) م

ابو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر
ابن أبي مروان ... بن زهر الايادي الاندلسي الاشبيلي .

كان من أهل بيت كلهم علماء رؤساء ، وحقماء وزراء ،
متقدمون عند الملوك ، وكان ابو بكر متمكناً من شعر العرب ،
عالي المرتبة ، كثير الأموال ، مشرفاً على جميع أقوال أهل
الطب ، وله في كتاب جالينوس (حيلة البرء) :

(حيلة البرء) صنفت لعليل
فإذا جاءت المنية قالت
يترجى الحياة او لعليدة
حيلة البرء : ليس في البرء حيلة

وكان يعالج الناس في الطب ، وأوصى ان يكتب

على قبره :

تامل بحقك يا واقفاً
تراب الضريح على وحنقي
ولاحظ مكانا دفننا اليه
كأنني لم امش يوما عليه
وها انا قد صرت رهنا لديه

وانفرد بالتقدم في الموشحات ، في زمانه ، وقد شرقت موشحاته
وغربت ، وكان جده ابو العلاء زهر وزير الدهر وفيلسوف العصر
وحكيمه ، وتوفي سنة ٥٢٥ بقرطبة .

وكان عبد الملك قد ارتحل الى الشرق وطبب زماناً طويلاً ،
وتولى رئاسة الطب في بغداد ، ثم في مصر ، ثم في القيروان
وبدأ اهل زمانه .

وكان جد جده محمد بن مروان عالماً حافظاً للادب فقيهاً
متفتناً جواداً .

قيل لابي بكر : لو قيل لك : ما ابداع ما وقع لك في
التوشيح ؟ فقال : كنت أقول :

ما العولمة	من سكره لا يفيق	ياله سكران
من غير خمر	ما للكئيب المشوق	يندب الاوطان
هل تستعاد	أيامنا باخليج	ولياينا
او يستفاد	من النسم الأريج	مسك دارينا
واد يكاد	حسن المكان البهيج	ان يحينا
نهر اطلد	دوح عليه انيق	مورق فينان
والماء يجري	وعائم وغريق	من جنى الربحان

ابن سناء الملك

(٥٥٠ - ٦٠٨) هـ (١١٥٥ - ١٢١١) م

هبة الله بن القاضي الرشيد جعفر بن سناء الملك ،
السعدي ؛ ابو القاسم ، ويعرف بالقاضي السعيد ، شاعر ذو ثقافة
عالية أحلته منصب القضاء كأبيه ، مصري المولد والوفاة .
كان نبيلاً وافر الفضل ، بارعاً في علوم اللغة والدين ، رحب
النادي ، جيد الشعر ، بديع الانشاء متفنناً فيه ، مكثراً للتأنق
في الكتابة ، كتب في ديوان الانشاء بمصر مدة ، على سعة
في العيش ووفرة من الغنى .

وكان ولوعاً بالموشح ، فاستقصى أخباره وأسسها ، وجمع
طائفة من أحسن ماعرف منه في كتابه (دار الطراز) وأودعه
موشحاته التي نظمها هو نفسه .

وكانت له صلوات أدبية وثيقة بالقاضي الفاضل صاحب
الطريقة المؤنقة في الكتابة ، وبغيره من أدباء العصر وشعرائه ،
يطارحهم الشعر ويواصلهم بالأدب .

وكان معجباً بصلاح الدين الايوبي، مدحه مديح ا كبار واحترام.
له كتاب (فصوص الفصول) (مخطوط) جمع فيه طائفة
من إنشاء كتاب عصره ، ولا سيما القاضي الفاضل ، وكتاب
آخر اسمه (روح الحيوان) (مخطوط) اختصر فيه كتاب
الحيوان للجاحظ .

استفاضت شهرته في الشرق والغرب ، وبخاصة في موشحه

الذي يقول فيه :

(١) يا حبيبي ارفع حجاب النور^١ عن العذار^٢
تنظر المسك على الكافور في جلائر

ابراهيم بن سهل

(٦٠٥ - ٦٤٩) هـ (١٢٠٨ - ١٢٥١) م

من أهل اشبيلية ، شاعر غزل ، كان يهودياً فأسلم وتلقى
الادب وأجاد في الشعر ، سكن سبته Ceuta في المغرب الاقصى ،
وغرق مع واليها اذ كانا في زورق انقلب بهما فهلكا .

(١) ورد المطلع بدون اداة نداء في بعض المصادر (حبيبي ارفع .)

ووجود الاداة يناسب وزن البيت الثاني (تنظر ...) ولذلك اثبتناها
كما اثبتنا بعضهم .

له ديوان شعر صغير . ومن أشهر شعره موشحه الذي عارضه الكثير من الشعراء ويبدوه بقوله :

هل درى ظبي الحمى ان قد حمى	قلب صب حله عن مكس
فهو في حر وخفق منلما	لعبت ربح الصبا بالقبس
يا بدوراً اشرفت يوم النوى	غرراً تملك بي نهج الغرر
ما لنفسي في الفوى ذنب سوى	منكم الحسن ومن عيني النظر
اجتني اللذات مكلوم الجوى	والتذاذي من حبيبي بالفكر
كلما أشكوه وجدي بسما	كلربا بالعارض المنبجس
اذ يقيم الفطر فيه ما تما	وهي من بهجتها في عرس
أيها السائل عن جرمي لديه	لي جزاء الذنب وهو المذنب
اخذت شمس الضحى من وجنتيه	مشرقاً للشمس فيه مغرب
ذهب الدمع باشواقى اليه	وله خد بالخطي مذهب

لسان الربيع بن الخطيب

(٧١٣ - ٧٧٦) هـ (١٣١٣ - ١٣٧٤) م

محمد بن عبدالله بن سعيد اللوشي الأصل ، وزير مؤرخ ، وأديب نبيل ؛ ولد بقرنطة ، واستوزره سلطانها ابو الحجاج يوسف سنة ٧٣٣ ثم ابنه السلطان محمد من بعده ؛ نسبه بعض حاسديه

الى مذهب الفلاسفة ورمي بالزندقة ، وأوغر عليه قلب السلطان
محمد بن يوسف فاعنقه بناس ، فطرقوا عليه السجن ليلا وخنقوه
كان يلقب بذي العُمرين لكثرة أرقه واشتغاله بالتصنيف
في ليله ، وتديير المملكة في نهاره . وهو كثير المؤلفات ، وتقع
في نحو ستين كتاباً منها الاحاطة في تاريخ غرناطة ، والاعلام ،
فيمن يبيع قبل الاحتمام ، من ملوك الاسلام .

وله شعر جيد ، ومنه موشحه الذي عارض فيه موشع

ابن سهل فقال في مستهله :

جارك الغيث اذا الغيث همي يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك إلا حلماً في الكرى او خلسة المحتلس

اذ يقود الدهر اشبات المنى تنقل الخطو على ما يرسمُ
زمرأ بين قرادي وثنى مثلها يدعو الوفودَ الموسم
والحيا قد جمل الروض سى فتغور الزهر منه تبسم

وروى الدهمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن أنس
فكساء الحسن ثوباً معلماً يزدهي منه باهى ملبس

في ليالي كنت سر الهوى بالدجى لولا شمس الغرور
مال نجم الكائن فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه عيب سوى انه مر كلمح البصر

ابن زمرک

(٧٣٣ - ٧٩١) هـ (١٣٣٣ - ١٣٨٩) م

ابو عبد الله محمد بن يوسف الصريحي ، ولد في غرناطة ونشأ بها ، وهو من مفاخرها ، واسع المعرفة غزير المادة حاد الذكاء ظاهر الذيل ، جيد الكتابة والشعر ، كلف بالمعاني البديعة والالفاظ الصقيلة ، أحلته السلطان ابن الأحمر محلاً رفيعاً وخصه بكتابة مره بعد لسان الدين بن الخطيب ، وقد أثنى عليه هذا في « الاحاطة » .

مات ابن زمرک قتيلاً بعد سنة تسعين وسبعمائة

وهو كثير الموشحات من ذلك قوله :

نواسم البستان تنثر ملك الزهر
والظل في الأغصان ينظمه بالجوهر

وراية الاصباح	اضاء منها المشرق
تنشرها الارواح	فلا تزال تخفق
والزهر زهر فاح	لها عيون ترمق
فاينظ الندمان	تبصر ما لم يبصر
جواهر الشهبان	قد عرضت للمشتري

وينهي موشحه بمخاطبة ممدوحه ويقول :

خذها بلا دعوى	نزعى على الروض الوسيم
جاءت كما تهوى	ارق من لندن النسيم
قد طارحت شكوى	من قال في الليل البهيم :
« ليل الهوى يقظان »	والحبيب ترب السهر »
« والصبر لي خوان »	والنوم من عيني بري »

وهذا القفل الاخير (ليل الهوى يقظان) هو مطلع موشح

لابن سهل ، استعاره ابن زمرك فجعله (خرجة) لموشحته اوردها

بعد كلمة (قال) ، وفق ما جرت به العادة في خرجات الموشحات .

حول الموشحات

للباحثين في الموشحات آراء هي صفوة ما يذهبون اليه من حكم وتقدير ، لذلك كان من الخير أن نستعرض شيئاً من هذه الأحكام ، غير متناسين ما يمكن أن يكون فيها من اختلاف ، مردّه الى الزاوية التي ينظر منها القائل ، والاتجاه الذي يأخذ به نفسه ، فرب معجب يصدر حكمه عن قلبه ، وناقذ يزن الأمور بميزان الواقع ، فيختلفان أفقاً ونظراً ؛ على أن كل اختلاف في هذا السبيل ، شهي مرغوب فيه ، ما أمتع البصر بافق جديد ، وأمد الفكر برأي قويم .

فمن ذلك ما تحدث به المرحوم الاستاذ محمد كرد علي في كتابه « الاسلام والحضارة العربية » (١ / ٢٣٠) عن الشعر العربي والفنون الجميلة في الاندلس ، فذكر ان العرب « لما انتقلوا الى الاندلس جاء شعرهم خلافاً بعمانيه ونصويره وتأثيره » وان « للاندلسيين فضل

السبق في اختراع الموشحات التي تهيج النفوس الخاملة ، وتشرّبها
القلوب اسلاستها ، كأن سماء الاندلس أوحّت الى قرائنهم بما لم توحه
سماء الشرق ، وتجارى غواة القريض في نظم هذه الموشحات
وترديدها الى الغاية ، واستظرفها الناس جملة لسهولة تناولها وقرب
طريقتها . وقد كثرت اختراعاتهم في المعاني ، والبسوا الشعر
ديباجة مستملحة كسرت قليلاً من قيوده ، وألبسته حلة مدنية
كالجمال العراقية والشامية أيام رواج الشعر في بعض ادوارها الراقية «
ونقل عن شاعر الاسبان فرنسيسكو فيلامباما انه « لم تهياً
للشعر العربي في عامة الاقطار التي اكتسحتها للعرب تربة اصالح
من تربة الاندلس ، ولا زها في بلد من البلدان زهوته في
هذا البلد » .

وقال « ان روح الفروسية التي سادت القرون الوسطى ،
وأحالت همجية الحروب الى مداعبات على ظهور الخيل في ميادين
الالعب ، وانجبت من الحب أدباً عالياً ، ومن المرأة صنماً

معبوداً لهي روح خلقها الشعر العربي وحمّلها الى العالم على اجنحة
موشحاته ، فعم العالم « الأدب المنمّق » الذي سبق الرومانطيقية
ببضعة أجيال ؛ ومنه كان للشعر العربي هذا التأثير في العالم ،
فأحر به أن يكون في اسبانيا أشد بلوغاً منه في غيرها .

ثم يقول : « وليست جميع القصائد المجموعة في كتب الاغاني
الاسبانية لمختلف الشعراء سوى انحلال ما في الدواوين الشرقية
من شعر ، فانك ترى ناظميها يرافقون في أناشيدهم الايقاع
المتكرر في الحان الرباب ... وينتهي الى ان التأثير بالأدب العربي
البادي في آداب اللغة الاسبانية ظاهر في أناشيدهم الشعبية التي
تمثل نفس أمتها الشاعرة » ...

وتحدث الاستاذ كرد علي عن النهضة الموسيقية الجبارة التي
كانت في الاندلس ويذكر « انه كان لهم آلات من الطرب والوان
من الملاهي كادوا يتفردون بها ... ودام الغناء واللهو والاونار
والرقص في الاندلس الى عهد خروج العرب منها ، على حصة
موفورة ، فكان من الطبيعي أن يأخذ الافرنج عنهم ، ولا يزال الى

اليوم غناء الاسبانيين يشبه غناء العرب ، وموسيقاهم كأنها
موسيقاهم ، وكذلك رقصهم و كثير من أدوات لهوهم ، وهكذا
الحال في اسبانيا والبرتغال اليوم بل في جمهوريات امريكا الجنوبية
ولاسيما أهل الارجنتين والبرازيل بفضل زرياب الذي رحل
الى المشرق وعنه أخذ الاندلسيون وجيرانهم ... » (٢٣٧)

ويشير الاستاذ كرد علي في (خطط الشام) الى زرياب . ولى
المهدي ، والى مقدمه على خلفاء بني أمية في الاندلس ، وانه كان
يركب في مائة غلام ؛ ويذكر عن آلة الطرب (الأثرغن) التي
تقدمت الاشارة اليها في هذا الكتاب ، انها غير الارغن الذي
يعرفه الافرنج لعمدنا ، ونقل عن الخوارزمي : « ان الارغانون آلة
لليونانيين والروم ، تعمل من ثلاثة زقاق كبار من جلود الجواميس ،
يضم بعضها الى بعض ، ويركّب على رأس الزق الاوسط زق
كبير ، ثم يركب على هذا الزق انابيب صفر لها قصب على
نسب معلومة ، يخرج منها أصوات طبيعية مطربة مشجية على
ما يريد المستعمل » (١٠٦/٤ - ١٠٧)

ويذكر الدكتور شوقي ضيف في كتابه (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) (٢٧١ - ٢٧٥) : « ان الاندلسيين لم يستطيعوا ان يحدثوا مذهباً فنياً جديداً في الشعر العربي ، بل جمدوا عند التقليد والصوغ على نماذج الشرق من غير تعمق ، ويقرر ان صنيعهم اقتصر على الشكل ، وان الغناء والموشحات والازجال هي الشيء الطريف في شعرهم ، ويرى ان فن التوشيح لا يعتد به كمذهب جديد في الشعر العربي ، وانما هو شيء يتجاوب والبيئة وما كان فيها من ترف ولذة ونعيم ، فأدبهم في الموشحات وغيرها لم يحدث ثورة على الأوضاع القديمة في الصياغة الفنية ، لا في صياغة التفكير ولا في صياغة الشعور ، لأن الاندلس او شعراءها على الأقل ، لم تعرف التفكير العميق الدقيق ؛ وينتهي الى أن الموشحات والازجال استمدت دلالاتها وصياغاتها من معين المشرق ومذاهبه الفنية . »

وفي رأي أحد المؤلفين القدامى (في وفيات الأعيان) :

« ان الموشحات زبدة الشعر ونخبته ، وخلاصة جوهره وصفوته ، وهي من الفنون التي أعرب بها أهل المغرب على

أهل المشرق ، وظهروا فيها كاشمس الظالمة والضياء المشرق .
ويرى الأستاذ خليل الهنداري (في نصوصه المدروسة) :
« ان الموشحات لم تخلق لتغذية الذهن وارضاء التفكير ، وانما
خلقت لاثارة الخيال والعاطفة ، وإبهاج النفس والاذن والعين ،
وهي جديرة بان تحمل معها طابع الأدب الاندلسي
والبيئة الأندلسية » .

ويورد الأستاذ نعيم الحمصي (في رائده) عن أحد المستشرقين :
« ان الموشحات الاندلسية تنفح العالم العربي بعطر شذي من تلك
الأرض الاندلسية التي لبثت زمناً طويلاً محافظة على الروح الشامية »
ويورد قول غيره : « ان أسلوب الموشحات هو ابن ليالي
الهوى وابن الكؤوس وابن الطبيعة وابن الموسيقى ، ولولا نزوعه
الى التكلف البغيض ، ولولا معاطاة غير الشعراء له ، لكان جديراً
به ان يكون المثل الأعلى للشعر الصحيح » .

ويقول ابن بسام في (ذخيرته) : « وهي (اي الموشحات) أوزان
أكثر استعمال أهل الأندلس لها في الغزل أو النسيب ، تُشَقُّ

على سماعها مصونات الجيوب ، بل القلوب «
ويذهب المستشرق الافرنسي ديمونبين الى « ان الشعر العربي
في اسبانيا وجد تربة صالحة جداً للازدهار ، واكتسب فيها
عفوية فياضة ، وتذوقاً للطبيعة والحياة » .

وذكر يوسف أشباخ المؤرخ الألماني في (تاريخ الاندلس
في عهد المرابطين والموحدين) : « ان المرابطين كانوا يطاردون
العلماء الذين يخرفون عن معتقداتهم .. ويعملون على تحطيم
الروح الشعرية الاندلسية التي كانت تجد متعتها في قريض
الفروسية والقصص المفرق ... ولم تطل سيادتهم أكثر من
نصف قرن ، كما ان اواخر ملوكهم قد غمروا بسحر التمدن
دون أن يشعروا ، فكفوا عن مطاردة الحضارة والثقافة العربية ،
ومالوا الى مصادقة الشعراء والعلماء ولا سيما اوائك الذين شادوا
في نظمهم ونثرهم بمدح حكومتهم وغزواتهم . . . وقد أفادت
سيادة المرابطين روح الشعب الاندلسي خات مكان الفروسية
الهائجة ، والملاهي الناعمة ، والدعابة المصطنعة ، والفتور النسوي :

روحٌ حربية قوية ، واعتدال متقشف ، وذكاء فطري ، ورجولة
متينة .

ولم يبدِ الموحدون من الغلو في مطاردة الثقافة مثلما أبداه
أسلافهم .. وقد شجعوا كثيراً من العلوم ، وغمرت الشعب موجة
من الرخاء ، وهو من العناصر المشجعة للتقدم العقلي في الشعوب «
(٢٥١/٢) .



الخاتمة

وبعدُ فقد بسطت دونك صفحة من الأدب والعلم ، توخيت فيها التقريب والفائدة ، ووضعت خلفها فكرة شعرت بها كما شعرتُ ، وعرفت كما عرفت ، وهي ان هذا الضرب من الأدب صورة عن ماضٍ حبيب ، ومرآة لزمانٍ ممسول ، كان أيام اتسام الرقعة ، وامتداد الملك ، واثلاق الحضارة .

كان أيام حيرة الاقوام الباقية ، وضلة الافهام التامة ، وحلقة الاوطان المتعادية .

ولكن الدهر دول ، فما ضرب من ضربته ، حتى ضاع المجد من أيدي أصحابه ، واستبدل أهل الحيرة بحالهم خيراً ، فاذا نحن في الضلة والحيرة ، واداهم في اليقظة والبناء .

ذلك اننا استبدلنا بالجدهو ، وتبدلوا باللهو جدا ؛ واننا بتنا أميل الى الطرب واللذة ، واصبحوا أمبق الى التعب والانتاج ؛ وكذلك تتغير الاحوال بتغير الاخلاق ، وتضيع الممالك بامتهان القيم ، وتزول الامجاد في الانغماس بالاهواء .

فليكن اذن عملنا في سبيل الحق واليقظة والصدق ، ولننتفع
بالدروس التي سطرها لنا التاريخ ، وليذكّرنا البحث الذي كنا
فيه ، بما كان لنا في غابر الدهر ، وكيف غاض بين سمع الارض
وبصرها ، عسى ان نعتبر في سبيل البناء الجديد .

وبعد ، فربما وقع في الطبع او الصنع بعض ما يمكن أن يقع ،
وهو مما لا يبرأ منه الجهد ، ولا يعرئ منه الخائق ، ولا
يخني على الارب .